سرد

كما لو أننا نولد للتو

كاظم جماسي

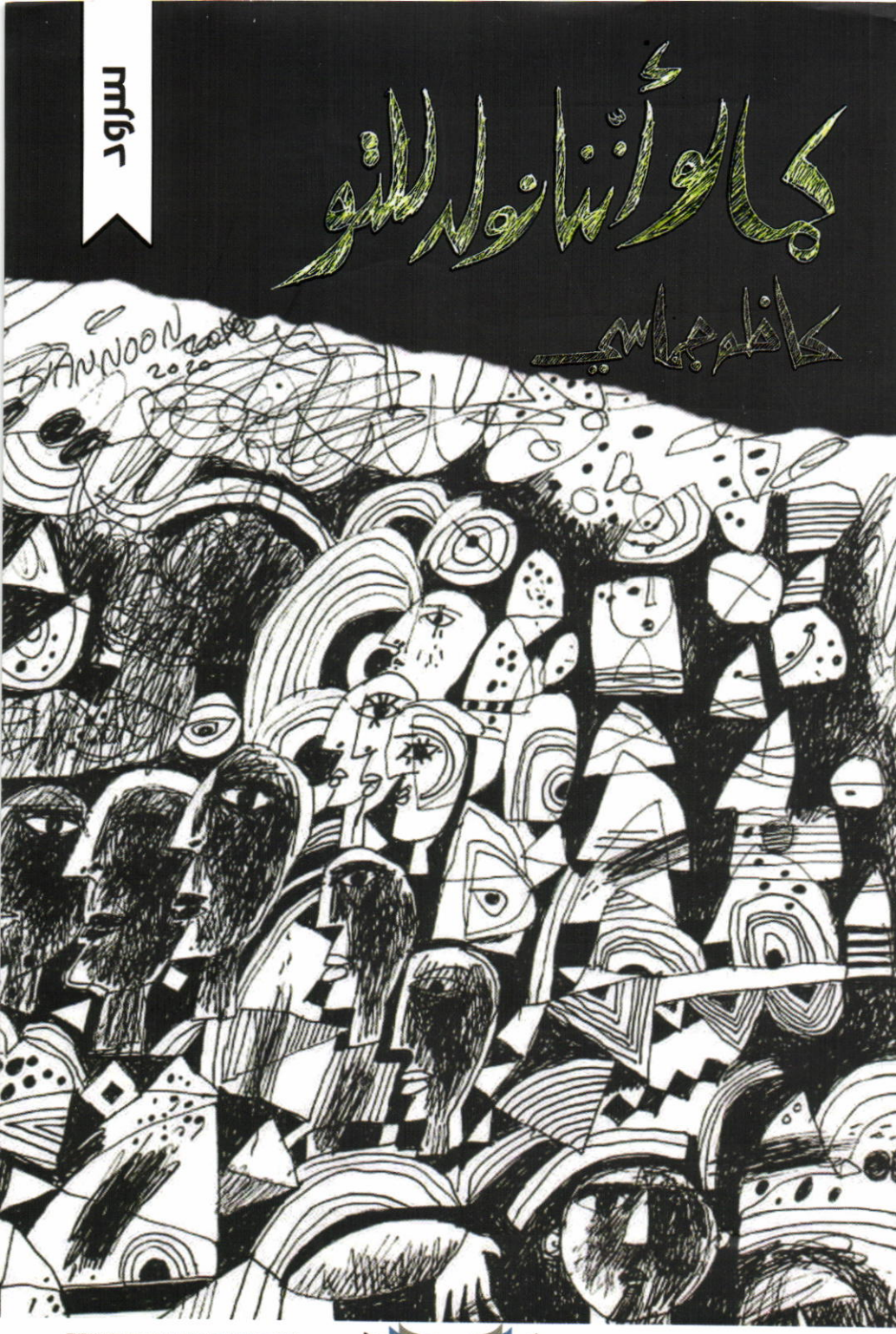

THE UNION OF IRAQI WRITERS PUBLICATIONS

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

813 / 92
ج 825 جماسي، كاظم
كما لو اننا نولد للتوّ / كاظم جماسي
بغداد : منشورات اتحاد الأدباء، 2021.
94 ص ؛ 14×21 سم
-القصص العربية / العراق
م.و.
2021 / 2842

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

الطبعة الأولى 2021
رقم الايداع (2842) في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة 2021
ISBN: 978-9922-648-81-1

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق - بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو اعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher. This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

التصميم: نصير لازم
لوحة الغلاف للفنان هاشم حنون

احتفاء بالرموز الثقافية والأدبية اختار
الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق
القاص والروائي **محمد خضير**
وسماً لمنشوراته عام 2021

كاظم جماسي

كما لو أننا نولد للتوّ

سرود

2021

إلى..

الزهرة التي لم تكف لحظة

عن نشر عطرها في أرجاء حياتي،

سليمة طبعا..

من أجل أن تكتب قصيدة واحدة

راينر ماريا ريلكه

من اجل قصيدة واحدة، عليك أن ترى مدنا عديدة، بشرا وأشياء كثيرة، عليك أن تفهم بأي لغة تتحدث الحيوانات، أن تحس كيف تحلق الطيور، وأن تعرف ماتومىء اليه الأزهارعندما تتفتح في الصباح، عليك أن تكون قادرا على العودة بأفكارك الى شوارع في ضواح مجهولة، الى لقاءات لم تتوقعها، والى فراقات تنبأت بها قبل ان تحدث بوقت طويل. الى أيام الطفولة .. أسرارها التي ما زلت تجهلها، الى أبوين آذيتهما حين أتياك بفرحة لم تشاركهما فيها'' ظننت انها فرحة للغير،،. الى أمراض الطفولة بأية غرابة بدأت وصاحبتها تحولات جمة، عميقة وصعبة، الى ايام هادئة أمضيتها صامتا، والى صباحات جوار البحر، الى البحر ذاته، الى البحار جميعها، الى ليالي سفر اندفعت فيها عاليا، وحلقت مع النجوم.

ولا يكفي كل هذا .. ينبغي أن تكون لك ذكريات عن ليالي حب كثيرة، كل واحدة تختلف عن ألأخرى. ذكريات عن نساء صرخن

طويلا من الالام الطلق .. عن فتيات مضيئات، شاحبات، نائمات ولدن للتو وللتو أنغلقن مرة أخرى.

عليك أيضا أن تكون قد سهرت قرب من يحتضر، أن تكون قد جلست قرب الميت في غرفة نافذتها مشرعة فيما الضوضاء تتفاقم خارجا.

وبعد .. ليس كافيا أن تكون لك ذكريات. عليك، حينما تكثر، أن تكون قادرا على نسيانها، وأن تصبر ريثما تعود اليك .. الذكريات بذاتها ليست مهمة إلا أذا تحولت الى دم فينا، الى نظرة وإشارة، وغدت من دون أسماء تميزها عن أنفسنا ..

آنذاك فقط، وفي ساعة نادرة، يمكن للكلمة الأولى للقصيدة، أن تنبثق، وتسير ببطء، متوجهة نحوك.

عن[فراديس] العدد ٦/٧ نوفمبر ١٩٩٣

ترجمها عن الأنجليزية / سركون بولص

الزورق

فيما السماء، على الضفة الأخرى من النهر، تقيم وسائد وردية وأراجيح وأسرة فارهة من نتف غيوم بيض، وتملأ فراغاتها ببالونات زرق بهيجة الهيئة، كان جان دمو، وقبالته قماشة سوداء مثبتة على حامل للرسم، منهمكا في تحويلها لبانوراما تكتظ، في قسمها العلوي بوجوه نضرة لأولاد وصبايا ينشجون بدمع مدرار، يساقط على شيبات رؤوس ولحى شيوخ وعجائز، ثم تجري في أخاديد غائرة في صفحات وجوههم الذابلة، محتشدين أسفل القماشة..

لم أشأ أن اعلن عن وجودي، ريثما يتم جان رسم بانوراماه وقد راحت تتخللها، هنا وهناك، توابيت مكسوة برايات وطنية تنشب في أطرافها نيران، تصاعد ألسنتها لتعبر الحافات العليا للقماشة، حتى أنك لتشم روائح الدخان، فيما تقطر حافاتها السفلى، ومن مواضع عدة، قطرات حمر قانية، راحت تشق مسالك لها عبر الجرف، ذاهبة نحو النهر ...

على حين غرة، ألتفت ألي جان فألفاني مأخوذا، أطيل التحديق في المشهدية الوحشية المرعبة التي خلفتها ريشته على القماش، صاح بي: ها ... ، أجبته مستفهما: ها ؟ ..، أشار بسبابته الى البانوراما: هذه

ضفة ..، ثم وهو يرفع ذراعه الى الأمام بإستقامة نظره، ويضيف: وتلك ضفة ..

بلهفة وظمأ مضاعفين سألته: وكيف العبور؟!

مالبث أن مد ذراعه في عبه، ليخرج قنينة عرق ملأى، ثم ليرفعها عاليا ويهتف مقهقها: هذا هو الزورق.

تحرير

أفاق جان دمو، من رقدته، فزعا، على هاتف هتف به: قم ياجان وأملأ الأرض عدلا..، تلفت حوله فوجد نفسه في قلب الميدان المركزي للمدينة، محاطا بأكوام من قنان زجاجية فارغة، وصفوف متراصة من حافلات حمر لنقل الركاب، تحتشد نوافذها بأفواه فاغرة وعيون جاحظة تبحلق به.

كان الوقت، كما تشير ساعة الميدان منتصف الليل تماما، نهض من فوره متناولا قنينة فارغة ومضى يقطّر في حلقها ما تخلف من قطرات في قيعان القناني الأخر، ولما كان يفرغ من الواحدة يقيمها منتصبة خلفه ليتناول اخرى ثم أخرى..، كالرهوان متلبسا بفورة حماس منقطع الشبيه، حتى إذا أمتلأت قنينة كاملة بين يديه، التفت خلفه فرأى: متاهة من دروب كانت قد رسمتها صفوف القناني الفارغة..

لبرهة، وقف جان متفكرا..، مالبث حتى ولى وجهه صوب الحافلات، وراح يصعد الى الحافلة تلو الحافلة، يقطر قطرة واحدة من سائل القنينة فوق كل لسان من ألسنة الركاب المتدلية خارج أشداقهم، حتى إذا

سقى لسان آخر راكب في آخر حافلة، عاد متفحصا لوحات أرقام الحافلات ليتأكد من كونها تحمل العنوان ذاته" ميدان – حرية"....

كان الوقت، كما تشير ساعة الميدان، منتصف الليل تماما، لما ركض جان مقهقها متحشرجا ملء فيه، مطلقا، في الوقت عينه، أقذع شتائمه، عبر المتاهة، مشرعا ذراعيه تتبعه طائرة أسراب الحافلات .

ارتقاء

* إلى الأخضر بن يوسف

بعد طواف متصل، دائب وحثيث، أستغرق أعواما طوالا من الأخاديد التي وشمت كهولتي المكابرة، سعيت بكد ونزف ومكابدة في سبل موحشة، تبيض كل خطوة جرح، ساعية بحقد مكين للأطاحة بي، تخفي عطفاتها على الدوام، غواية ما، تتغنج وتميس داعية إياي، مرة في هيئة وعل بري، يشير علي أن أمتطيه، غير أن المكابدة علمتني أن أتقي شر الغضب، فرفضت. ومرة في صورة نسر بعيون لامعة من ماس، يخفض جناحيه ويومئ ألي أن إركب، ألبث زمنا وأتذكر: أن للوهم موهبة التحليق، فأرفض. وثالثة في شكل أفعى لجلدها الأملس نعومة وطراوة مغريتين، خفت أن أنزلق فرفضت ..

بعد طواف متصل، دائب وحثيث، وصلت الى السفح، سفح مدجج بمدى باشطة، روّعت لمرأى أنصالها فذعرت، كيف لي، مع هذه الحتوف المؤكدة، عناق المرتقى، وقد أييسني النزف وأضناني الكد وأوهنتني المكابدة؟! .. مستنجدا تلفت، أيكون كل ذاك العناء المرير هباء؟ صرخت: لا .. وبعد لأي أغاثني حمار، أية وداعة وأي وفاء،

هفا إليه قلبي ورق، دعوته فأستجاب، أسبل أذنيه ورفرف مرتين برمشيه وأناخ لأمتطيه ففعلت.

بعد صعود متصل بهيج الى المرتقى، سوى أنه بطيء، تضافرت ضدي مخاطر أنكى وأهوال أشد، فيما صرخات الساقطين اليائسين، تسكب كل حين زيتا أخر على لهب السعير، ودابتي غير مبالية، تتخطى، بحذق لايبارى، شفرات الصخور وأنصال المخاطر ..

بعد زمن طويل طويل، من مجاهدة التسلق، الى المرتقى، وقد أمض بي التعب والجوع والعطش، تناهى الى سمعي هسيس ناضح بالفتنة، فمسني هلع ممتزج بإرتعاش، أيكون ترحيبا من الذروة، وقد بت قاب قوسين أوأدنى منها؟! أم أنها غواية الغوايات؟!

منوما مأخوذا ألتفت، فإذا بي وممشوقة هيفاء وافرة النعم تغمز لي... مساقا بلوعة الفضول وشهوة جارفة، تراخت قبضتي ففلت العنان ... متدحرجا رحت أرنو بنظر حسير الى دابتي ترتقي العرش مسرورة جذلى.

تطريز

شتاءً أو صيفا، وعند الخيط البكر من نسيج الفجر، كل منهن تحكم نقاب وجهها جيدا، لتهرع متأبطة شوالاتها، وبعزم مقاتل مستميت ينطلقن نحو كل ناحية من نواحي المدينة الكبيرة، للأحتطاب..، يقطعن مسافات تطول أو تقصر بين مزبلة وأخرى، يجمعن علب البيبسي الفارغة بعد ان يدعكنها ليودعنها جوف الشوال، منهمكات بعملهن غير معنيات بمن راح أو جاء، حتى أذا أمتلأ شوال أحداهن، أحكمت إغلاقه جيدا ...، وفتحت آخر، ومضت تجمع وتجمع بذات الوتيرة من العزم والهمة، لاينقص من عزمهن، حين تكون المزابل شحيحة العلب، أو تكون مختبئة تحت أكوام نفايات لاحاجة لهن بها..

أعتادت أنوفهن المستترة خلف النقاب الأسود عطن ونتانة المزابل، ولم يعدن يعرن بالا لتلوث ثيابهن بالأتربة والدهون والأوساخ، لا سيما وأن سني شبابهن قد أفلت، ولم يطرق باب أنوثتهن طارق منذ زمن بعيد، وقد بلغت صغراهن اليوم مايزيد على الأربعين ..

لكل واحدة منهن حكاية مختلفة، سوى أنهن يجتمعن بذات المصير..، مصير تكتظ فيه الخسارات والخيبات والمرائر..

آخر كل نهار والشمس تهم بالمغادرة، يلتقين عند طرف من أطراف المدينة، حيث مخزن تاجر السلع العتيقة، يستقبلهن بوجوم كما هي العادة، يزن حمولاتهن وينقدهن أثمانها، ليقفلن راجعات بعد أن يتزودن بالطعام وحوائج أخرى..

كل مساء، السائر جوار المنزل العتيق، ذو الصالة والغرفة اليتيمة الواحدة، والجدران المغلفة بورق زاهي الألوان، يستنشق عبير طيب نادر المثيل، حيث يبدأ طقس خاص جدا تقيمه القاطنات، يغتسلن ويغسلن هدومهن ويضعن حفنة من خلطات بخور خاصة على كل مبخرة من المباخر المتوزعة في الأركان، ثم يجلين أرض المنزل وجدرانه، ويجتمعن أخيرا في الصالة كل تمسك بقماشتها البيضاء وإبرها الخاصة، بعد أن يكن قد تناولن عشاءهن، ليبدأن كدحا آخر، كدح من نوع خاص بهن وحدهن، غير أنه ممتع أيما متعة، يطرزن تحت ضوء واهن قماشاتهن ببلابل وحمائم وفراشات، كل طير من لون وكل جناح من لون، بل كل ريشة من لون، يجن الليل وهن منهمكات، يطرزن ويطرزن، تحتشد الطيور على وجه القماشة ولاتفيض، حتى يغبن عن الوعي، وتأخذهن سنة النوم ..

شتاء أو صيفا، وعند الخيط البكر من نسيج الفجر، يستيقظن فيجدن قماشاتهن بيضا ناصعات كما لم يمسسها أحد ..

اكتشاف متأخر

بعد فوات الأوان، أكتشف الحقيقة، بعد أن علكه الجوع ومضغه العطش، وماء فحولته قد نشف، وأمسى رميم عظام محض، على الرغم من أنه، كان، في بعض محطات مشوار عمره، محاطا بداليات الثمر، وسلسبيل الجداول وفتنة الغوايات.

بعد فوات الأوان، أكتشف الحقيقة، أكتشف أن لاذنب له سوى برائته، بل حماقته القاتلة، يوم صدق بما أوصته به التعاليم المقدسة [ضع فوق عينيك عدساتنا المعتمة، وعلى فمك لجامنا الثقيل، وفي كفيك قفازاتنا، وتدرع دائما بالريبة إزاء كيد النسوان، وأكفخ بما أوتيت من حيل رؤوس شهواتك لحظة تشرأب ...]

بعد فوات الأوان، أكتشف الحقيقة، أكتشفها لحظة هشمت عدستيه حصاتان صغيرتان أطلقهما صبي لاه بصيد عصافير تمرح عابثة في كبد السماء .

TRFFIC LIGHT

في المدن كلها، وكذا أية أرض مأهولة، وعبر الأزمان كلها، في رحلة العبور على الجسور الذاهبة صوب السعادة، قضت المراسيم جميعها، كهنوتية كانت أم ملكية أو جمهورية، ان الأشارات الخضر مخصصة لمرور المتخمين، من الرجال والنساء، بإخضرار النعم الوفيرة، فيما الأشارات الحمر، فمحددة حصرا للمكدودين النازفين قهرا وجوعا ومكابدة ...

لم يحدث، في المدن كلها، وكذا في المأهول من الأرض جميعه، و في الأزمان كلها أيضا، أن تشتعل الأشارات الصفر، سوى مرات معدودات، وفي مواعيد متباعدات، .... فقط حين يحدث نوعا من تماس داخلي، فتهتاج وتجن الأشارات الحمر، لتنلع حرائق كبرى فيختل النظام .

اختيار

كنا فصيلا من ستة عشر جنديا وثلاثة نوابا للضباط وضابط غر بنجمتين، مكلفين بحراسة مجمع مركزي لمخازن مواد غذائية متخم بأصناف لاحصر لها، مقام على أرض شاسعة في عاصمة دولة شقيقة، غزاها [بطل التحرير القومي] رئيسنا الأشوس فأحال جنائنها حطاما مكتملا ..

بعد جوع مقيم طوال سنوات خدمتنا، كنا [محظوظين] ، إذ غدا الواحد منا عجلا سمينا تقطر إباطه دهنا .. فقط بعد اقل من شهر، بعد أن كان جلدا على عظم، حتى أن البعض حين يحين موعد إجازته الدورية، يتحايل في عدم التمتع بها، فيعرضها على من هو[أحوج] منه أليها .. ذات غروب أقبلت من جهة الحي السكني القريب لموقعنا شابة لم تتعد العشرين، متلفعة بعباءة وتحمل رضيعا. كان الضابط الغر ذو الشاربين الثخينين جالسا على كرسي بباب المخازن، يحتسي من كوب حليب محلى بالكاكاو، أخبرته الفتاة بحاجة رضيعها الى علبة حليب[نيدو] وقد نفد حليبه ..كانت المخازن تغص بإصناف حليب الأطفال ومن ضمنها ماطلبت .. صفن الضابط برهة وراح يتملى جسد الشابة التي

أطرقت ببصرها الى الأرض، نهض من جلسته وأخبرها أن تتبعه الى الداخل، تبعته، وليس سوى دقائق حتى سمعنا صراخها تستنجد، هرعنا جميعا اليها، وفهمنا أن ضابطنا يريد مقايضتها .. جسدها قبالة حليب وليدها ..

شهر على الفور ج.م عباس غضيب ثويني كلاشنكوفه وسحب أقسامها مسندا فوهة سبطانتها ببطن الضابط صارخا: والله والله إن لم تتركها سوف أملأ كرشك دخانا .وسرعا ما عاضدت كلاشنكوف عباس كلاشنكوفاتنا ولم يك الضابط يعرف من أين راحت تنهال عليه الصفعات والركلات مقرونة بأقذع الشتائم والبصقات ..

نهضت الفتاة تلملم عبائتها حاملة رضيعها، فيما أنبرى عدد منا لتجريد الضابط المستخذي من سلاحه وطرحه أرضا ومن ثم تقييده، وحمل عدد اخر عددا من كراتين الحليب وشيعوا الفتاة الى حيث مسكنها، وأبلغوها أن تخبرجيرانها أن المخازن تعود أليهم وليأخذوا ما يشاؤون منها..

فيما بعد وتحت جنح الليل، تبعنا جميعنا ن.ض قصي حسن ناصر، دليلنا البصري الى حيث يعود كل منا الى أهله، مجازا بإختياره الذاتي .. حتى الأبد .

الأمر يستحق العناء

لا يدري أحد، حتى هو نفسه، متى أمسى موظفاً في سلك الخدمة المدنية، كما هو الشأن مع لحظة أن يولد المرء، بلا أية إرادة للأختيار..، كان كل ما يفعله هو الترقب طوال مدة خدمته، صعود الدرجة تلو الدرجة، بصبر نافد، في سلم الوظيفة، لعله يفضي به الى أريكة (الطمأنينة) الأخيرة..

أذا ما أزف موعد إستلام مرتبه الشهري، كان يصاب بحمى فرح نزقية، بدءاً من الليلة السابقة للموعد حتى لحظة أن يقبض على تلك الأوراق السحرية، يعدها متمهلاً، يشمها، يقبلها بشغف، ثم يدسها بهدوء في محفظته، ليركنها أخيراً داخل جيب لصق قلبه.

كل مطلع شهر، يعيش يوماً كهذا اليوم، يخرج في الصباح الباكر جذلاً على غير عادته، لا تسع الأرض بهجته، يموسق خطاه في شوارع المدينة، على أنغام متصاعدة من قيثارة روحه، يتطاول كيانه حد الأعتقاد بسطوة كلية القدرة على امتلاك كل شيء..، يزجي النهار حتى مقدم الليل، بغيرما هدى، متجولاً في كل جادة وعطفة من مدينته، مدينته التي عرفته، في أيامه الماضيات كائنا متحفظا، مستريبا،

يمشي، على الدوام، جوار الحيطان..، فيما اليوم، هاهو فارد الصدر، مقداما، يتطلع بكبرياء الى واجهات المخازن والمطاعم، أو يدخل أحدى دور السينما، يأكل سندويشاً، أو يحتسي قنينة ببسي، ثم يشتري علبة سجائر ويحدث أن يتخلى للباعة، مرة أو اكثر عما تبقى من "مبالغ" الشراء..

هذا اليوم، كان قدر قرر سلفاً، الأكتفاء بالتجوال والفرجة فقط، من دون أن يمس المحفظة التي لن يحظى من محتوياتها، طوال الثلاثين يوما القابلات، سوى بنصفها، فالنصف الاخر سيذهب، هبة خالصة، كما كان يقضي الأمر الاداري الملزم للجميع، بالأسهام بدفع تكاليف أجراء عملية فتح إنسداد في أمعاء مديرهم الغليظة...

بنصف الهمة بدأ تسكعه، وبلامبالاة قرأ كل ماوقعت عيناه عليه من إعلانات لمحال وشركات ومطاعم ودور سينما، غير أن قدميه قادته، أثناء مسيره، دونما أية مقاومة، الى واجهة أحد المطاعم، إذ أمتلأت خياشيمه برائحة شواء جبارة، ألصق أنفه بزجاج الواجهة، وراح يرمق بنهم موائد الرواد العامرة بلذائذ الطعام..

ويحدث نفسه بنبرة ناقمة:- هذا إنتهاك آخر مضافا لحقوق الأنسان، أليس الإكل العلني إهانة لمشاعر الآخرين؟! ثم لم لايعي البعض ماللصوم من فوائد جمة؟!.

في لحظة أختل توازن جسده، أذ تدحرجت تحت باطن قدمه زجاجة بيبسي فارغة، فخر ساقطاً على وجهه، ومن فورها طفرت المحفظة من

جيبه، ساقطة هي الأخرى، ولكن في فوهة مكشوفة لبالوعة مياه ثقيلة..، صرخ هلعاً:- محفظتي.. محفظتي..

ما قبل اللحظة، كان الشارع يعج بمواطنيه، أما الان فقد امسى قفزاً قاحلاً، ادار وجهه المدمى نحو كل الجهات، فلم يك من منجد أو مغيث..، أطرق لحظة..، شاهد المحفظة تطفو هناك، فوق سطح المياه القذرة، وجد بعد حين، أن لا مناص من الهبوط أليها.. دلى ساقيه فجفلت أطرافه، حين راحت برودة الماء الثقيل صاعدة تتسرب خلل مسامات جلده، بينما كان بدنه يهبط رويداً رويدا، أعترته قشعريرة وكاد يتقيأ، حتى أمست فروة رأسه تحت فوهة البالوعة، ومستوى المياه كان قد بلغ أسفل بطنه.

صمتاً كريهاً كان يرين في الأسفل فيما عدا أصوات تشبه النواح تأتيه من قاع سحيق، وضوء شحيح راح يغلف مساحة يسيرة من سطح المياه. قال لنفسه والنتانة تزكم أنفه:- (إنه قدري الأعوج الذي لا فكاك لي من الرضوخ لمشيئته). كانت المحفظة تتأرجح هناك على مرمى ذراع، مد يده يلتقطها، ولكن حدث- لسوء الحظ - أن تياراً هيناً تحرك دافعاً بالمحفظة الى أمام، تقدم ليلغي المسافة، غير أن المحفظة أبتعدت مجدداً، حاول أن يسرع في اللحاق بها، لكن التيار صار أسرع منه في دفعها، جرب القفز عليها ليمسك بها بيديه كلتيهما، ولكنه لم يجن سوى أوحال لطخت جبهته، وسوائل ثخينة راحت تسيل ببطء خلل طيات شعره، صرخ بغيظ:- اللعنة... فردد المكان أصداء ساخرة:-

عِنَه .. عِنّه .. عِنّه ..، وكلما تقدم أكثر مضى جسده هابطاً أكثر، تبتلع المياه منه أجزاء جديدة، فيما المحفظة تنأى - دائماً- عن الإمساك بها..، يتوقف فتقف، يمشي فتركض.. تساءل متهكما:- هل أنا في مضمار للخيل، حيث باقة العلف ثابتة البعد دائما عن فم الحصان..

بعد زمن من اللهاث المتواصل، أخذ ضوء ما ينتشر بنحو متدرج، فوق سطح المياه، نظر الى أعلى فرأى بالوعة مكشوفة أخرى، وفاجأه صراخ أحدهم هلعاً:- محفظتي.. محفظتي.. ما لبث أن لمح محفظة أخرى جوار محفظته، وشخصا آخر كان قد أستوى واقفاً بجواره، سأل الوافد، بعد تبادل نظرات هلعة، جاره:-

- كم من الزمن، وأنت هنا؟
- لا أدري.
- أهي مهمة يسيرة؟
- لا أدري.
- كم من الزمن، لبلوغ النهاية؟
- لا أدري.

وفيما مضى الاثنان يخوضان، كانت أقدامهما تتعثر، خطوة إثر أخرى، بكتل أسفنجية رخوة..، راحت تتكاثر كما الفطر عند القاع مكونة طبقة رجراجة متصلة، أما المياه فقد ظل مستواها يرتفع حتى بلغ ذقنيهما، قال الأول:

- من أجل أمعاء مديرنا العزيز.. نسبح.
- الأمر يستحق العناء.. نعم.. نسبح.

وأنهمك الأثنان يجالدان سباحة في مياه يثقل قوامها بإستمرار، الأول بجهد متضائل، أما الثاني لما يزل عند مفتتح (الماراثون)، فيما المحفظتان كانتا دائبتي الهروب..

كانت هناك، بعد زمن أيضاً، بالوعة مكشوفة ثالثة، وكان هناك ثالث، هلعاً، يصرخ:-

محفظتي.. محفظتي..

جمرة

جمرة أنا. لست أدري متى ولدت؟ ربما لحظة اصطدام حجر بحجر في كهف ما ليلة شتاء باردة أو ربما لحظة مس برق ما عيدان حقل يابسة لكن يمكننا أن نوقن، أنها لحظة فريدة، لا تشبه اللحظة الزمنية المعروفة. إذ بمقدورها احتواء كل اللحظات في الوقت الذي لا تحتوي فيه سوى نفسها، لحظة مستمرة، بتوهج ازلي. كان قديماً في حطب المواقد، واليوم يتقد عند رؤوس السجائر.

أعيش أنا هناك. وأيضاً هنا. في لا مكان وكل مكان. في النهارات الدافئة أو الليالي المتجمدة. في الفصول جميعها. بين أصابعك أو في المزابل. تلفحني شتى الأنفاس، الزكية منها والنتنة، أو اللاهثة منها والساكنة. وفي النهاية. لست معنية باية حال سوى التوهج المستمر، وبدرجة أقل، المراقبة المحايدة..

في الطابق الثالث من بناية قائمة على ضفة أحد شوارع المدينة. نفض الشاب رماد سيجارته، بعد أن أستل نفساً منها، نفث الدخان قائلاً:

- لعبة سمجة.

قال الآخر، بعد أن دلق محتوى كأسه في جوفه، ماسحاً فمه بظاهر يده:

- لكن لا خيار لنا. نحن في الساحة نفسها.

- أين ولى أذن ما حلمنا به؟! هي ذي العاصفة قد خمدت. قلنا سنكون.. ونكون..هه.

ودلق هو أيضاً محتوى كأسه في جوفه. قال الآخر باصقاً:

- علينا فهم شروط اللعبة.

وسحب سيجارة من جيب سترته العلوي، ناوله الشاب سيجارته الموشكة على الانطفاء، حرق بها طرف السيجارة الجديدة، ورمى عقب الأخرى الى الشارع من نافذة مفتوحة، ثم أردف:

- أما أن تلعب أو تغادر.

راح الشاب يسكب من قنينة تتوسط المائدة في قدحه مقداراً من العرق، مالبث مضيفاً اليه كمية مناسبة من الماء، فأستحال لون السائل أبيض عكراً، قال:

- لست أجيد اللعب تحت شروطهم. ولا أريد المغادرة. فهل يمكنني البقاء اذن؟

أجاب الآخر، وكان قد أمتص كمية من الدخان:

- ليس هنا من متفرج. الكل لاعبون.

نهض من مقعده، ومشى ناحية النافذة. ألقى بنظرة حسيرة الى الظلمة المخيمة في الخارج. ثم قذف أليها بأقصى قواه، سيجارته التي توشك أن تنطفئ.

ذات ليلة كانت ملقاة على رصيف الشارع، سيجارة موشكة على الانطفاء، وكانت تنحني امرأة في الثلاثين. متوسطة الجمال. تمد أصبعين ناحلين، تلتقطها لتحرق بها طرف سيجارة غليظة قاتمة اللون. سحبت نفسا عميقا منها فأمتلأت رئتاها بوفرة من دخان فاخر النكهة. قالت:

. حتى دخانهم مختلف.

ثم مضت. عند باب واطئ في عطفة الشارع توقفت. عالجت القفل بمفتاح، فأنفتحت درفته الوحيدة. على طاولة في دهليز قصير ألقت بحقيبة يدها ثم راحت الى المطبخ، وضعت على رف هناك كيساً بدا محتوياً طعام عشائها. رجعت. من باب مفتوح لغرفة، ألقت بنظرة. كان هناك سريران ينام عليهما ولد وبنت. أغلقت الباب، واستدارت لتدخل غرفة مقابلة، على كتف مطفأة للسجائر تركت سيجارتها، ثم وقفت قبالة مرآة طويلة، وأخذت بالتعري. تحسست بأنامل نحيفة. ثنايا جسد ذابل. عبر المرآة شاهدت سريرها بادياً بشرشف رمادي. جفلت. وشعرت بوخزة في صدرها. أستدارت وتناولت السيجارة. أمتصت نفساً عميقاً قائلة:

.كان غبياً بديناً هذه الليلة.

رمت وجه جسدها، بحركة مفاجئة، على السرير. لم تلبث أن انقلبت. السيجارة في يدها وعيناها معلقتان في سقف الغرفة المتصدع. قالت:

- يريدني مساء غد أيضاً. كم كان كرشه ثقيلاً، يرتج ويرتج، لكنه ينتهي سريعاً.

تكورت على جانب السرير. بمواجهة المرآة. شاهدت لوهلة جسدها وقد بدا غريباً.. نفثت نحوه غيمة من دخان. ثم قالت:

. غداً علي شراء تنورة لعائشة وشرائط، وبنطلون لعلي وحذاء.

دهمها وجع في بطنها. نهضت ومضت مسرعة نحو المراحيض. تغوطت وقامت. ثم أسقطت في فوهة المرحاض ما كان قد تبقى من السيجارة الموشكة على الانطفاء.

حبل سري

كاد اليأس يعترينا تماما، لولا جزم أحدهم، مشيرا علينا، بضرورة عيادتنا للدكتور"المختار" فهو- على حد — زعمه - طبيب عبقري، صيته طبق الآفاق، ، مشهود له بعلاج ماهو أصعب من حالنا، مؤكدا أن الشفاء معقود بيديه، وهكذا عزمنا على الذهاب أليه، ، لكن تنبغي الإشارة الى أن عزمنا ذاك، في مثل هكذا محاولات، ظل يشوبه الوهن ويثقله التردد، لطول مالاحقنا الفشل، وأحبطتنا الخيبات.. فمنذ أن خاطت زوجتي، قبل بضعة سنوات، أقمطة وليدنا المرتقب، باتت كمن تقطعت به السبل في صحراء لاتبين فيها الجهات، تنتظر مخلصا وليس من مخلص. أنهكها الأنتظار وكابدت الكثير، وبقسوة مفرطة، ضغطت على أنفاسها الساعات والأيام والشهور والسنوات، وتركت على هيئتها ومزاج روحها أخاديد ألم عميقات، ولكن قدر تعلق الأمر بي، لم أكن متحمسا، إن كان"الوليد" حضر أم لم يحضر، فقد كنت أعتقد، على الدوام، أن أولادي " الأعظم والأجمل" قصصي، خلاصة وجودي في هذا العالم، آلامي وأحلامي، يتوفرن على ميزة، لايملكها أي كائن على الأطلاق، ميزة عدم الزوال..، غير أن المسكينة

زوجتي ليست، في آخر المطاف، سوى"أمرأة" شأنها شأن الأخريات، اللواتي يعتقدن أن خصوبتهن تعادل، وربما تفوق وجودهن، ومن تفتقد منهن، تلك السمة، تمسي، أذا طال الزمن، مرتعا للملوحة واليباس كأرض بوار..

بالطبع، كنت أشفق عليها، أماحكها تارة، وأسترضيها أخرى، لعلي جهد المستطاع، أهون عليها بعض ما ينؤ به صدرها من هم، ولكن الأخير كان جارفا وراح ينمو كفطر خرافي، إذ ما أن ختم محدثنا نصحه بعيادة الدكتور المذكور، ندت عنها لاهثة، بغيرما إرادة وعلى الفور كلمة"هيا"، مالبث أن جللها، بعد حين، حياء كبير، فلاذت بالصمت..

صباح اليوم التالي، لم يكن صباحا عاديا، ونحن نقف على الرصيف، ومعنا عدد غير قليل، بإنتظار عبور الشارع الذي يمخره، بنحو غير مألوف، سيل من المركبات المسرعة ، ألتفت الى وجه زوجتي فألفيت عيناها مسمرتان بطفل دون الرابعة، ترنوان بإبتسامة عطوف أليه وهو يمسك حبلا قصيرا يؤرجح بطرفه الآخر كلب ضئيل من كلاب الزينة، تلك التي يضاهي حجمها حجوم الهررة ذوات الشعور المتهدلة المترفة، فيما الطفل، والفرح يغمر قسمات وجهه، يتقافز بإيقاع متناغم وحركات الكلب، وفي لحظة، والفجأة تشل الجميع، كان الكلب في وسط الشارع بالضبط والطفل منطلقا يريد اللحاق به، وليست، أيضا، سوى رمشة جفن، والهلع والصراخ يتعاليان، راح الكلب يعوي كما

الذئب، منحنيا يلعق خيوط دم قان تنساب من جثة طفل مهشمة تماما على إسفلت الشارع..

لم أكن قد أفقت من هول الصدمة، حتى ألفيت زوجتي صريعة غائبة عن الوعي تماما، جسست نبضها فكان بطيئا جدا، فيما غدا وجهها ممتقعا كليمونة جافة، لم يمض وقت حتى إنتبهت، بعد أن بلل صدرها ووجهها الماء الذي أسرعت برشه عليها، ولدهشتي نهضت كمن به مس، وهتفت"هيا" تجري جرا، مسرعة تقطع الشارع بلهفة فاضحة..

واجهة البناية التي تضم عيادة الدكتور"مصطفى المختار" تشبه واجهة أثر، كانت قد خلفته حضارة منقرضة، أعمدة متصدعة، جدران كالحة تفح كافورا، وهواء مختنق ينضح عفنا، تحيط بك وأنت تلجها أقواس لاعد لها، أقواس قباب، أو أقواس شواهد، منحنيات جصية بارزة أو ذاوية، توحي في ذات اللحظة بالريبة والإقبال، لكئنما أهلة، تضم طرفيها، في الأسفل، على خوف ما، أوتشرعهما، في اللحظة ذاتها، الى الأعلى تنتظر لذة ما، سوى إنها تنتهي دائما في صلادة الحجر ..

ظمنا درابزين سلم البناية المتهالك، وقد بدا ملتويا ممتدا من دون بداية أو نهاية واضحتين، فيما راح ضوءا واهنا ينبعث من فوق، بالكاد يجعلنا نستوثق مواطىء أقدامنا على درجات السلم التي نهشتها بقسوة عظات وثلمات كبيرة، في الوقت الذي رسمت فيه الرطوبة على جص الجدران مايشبه مخلفات معارك طاحنة، أشداق مفغورة لجثث تعفرها الأتربة، وضلال لأرتال رجال منكسرين أو نساء مستباحات، فيما يجسد

الضوء الشحيح المتراقص على الدرجات، أجداث شوهاء لبهلوانات أقزام تتقافز أمامنا، ونحن نخطو بعسر ومشقة الى الأعلى..

لوحة الأعلان عن عيادة"المختار" توشك على السقوط، تتأرجح بمسمار واحد يحملها من طرف واحد، طرقنا بابا مواربا، فتناهت ألينا حشرجة:- أدخل..

صر الباب بوحشة حين طالعتنا صالة واسعة شبه معتمة وخاوية من أيما موجودات، إلا من نموذج للهيكل العظمي للأنسان قائم في زاوية، يناظره في زاوية مقابلة، هيكل آخر لعجوز ذاوية تفترش طاولة عرجاء، أشارت بسبابتها صامتة، الى باب يتوسط الصالة، فدلفنا الى غرفة فارهة، مضاءة بنحو حسن، ناصعة الأرضية والجدران، تبين سماء زرقاء صافية خلل الزجاج النظيف لنوافذها، حيث يشغل جسد ضئيل يرتدي صدرية بيضاء لامعة، مكتبا عريضا فخما، رفع رأسه فرأينا وجها معافى لرجل سبعيني تعتلي أرنبة أنفه عوينات"كعب الفنجان"، بادرني بصوت حاد النبرات:- دعني معها وأخرج.

قفلت عائدا الى حيث الهيكلين العظميين، ولما لم يكن من مقعد هناك، سوى المقعد المشغول بهيكل"السكرتيرة" مضيت الى حيث الهيكل الآخر، أشاغل نفسي بعد عظامه. كنت وصلت في العد الى السبعين حين شعرت بما يتحسس جسدي، ألتفت فأذا بي بهيكل العجوز واقفا جواري، مفترا عما بدا إبتسامة كشفت لثيتين خاليتين من أيما ضرس، أبتسمت بدوري، فأخذت"المرأة" تقترب أكثر حتى أضحت ملتصقة

بجنبي، أستفهمت ماالأمر؟ ... أجابت بحشرجة لم أفهم منها شيئا، ثم رفعت كفيها مكورتين الى "مكان" ثدييها غامزة بنظرات وقحة، أبتعدت قليلا غير مصدق، لكنها هرعت فالتصقت بي محاولة تطويقي، تخلصت منها برفق مذهولا، تجرأت أكثر فمدت، بنحو مباغت، يدها الى أعلى بنطالي، جفلت وقررت الهرب، ولكن، وفي اللحظة ذاتها، لمحت زوجتي تخرج من غرفة الطبيب، عندها أستردت أنفاسي..، ونحن نهم بإجتياز باب العيادة، التفت الى هيكل العجوز، الذي لم يبدو ذاويا..، فوجدتها تدلق لسانها ساخرة، مشهرة أصبعها الوسطى، وفي عينيها الجاحظتين نظرة خليعة شرهة..

بعد أن أصبحنا خارج البناية، وقد بدت موشكة على الإنهيار، أخبرتني زوجتي أن"المختار" طلب منها عيادته دوريا، وقد فعلت ذلك بحماسة كبيرة.. وهنا علي أن أذكر: هناك الكثير من المتغيرات قد طرأت أثناء عيادتها للدكتور، حيث كنت ألحظ ألوان فساتينها قد أضحت أكثر بهجة، وزينتها أكثر إشراقا، وهي نفسها صارت تحب سرد الطرائف وتضحك لها ملء قلبها، كما أن زجاج نوافذ المنزل أصبحت أنظف وأنصع، وراحت تبدي إهتماما غير معهود بحديقة المنزل، أدخلت عليها أصناف جديدة من الشجيرات، وشذبت وسقت بإنتظام عددا آخر فيها، وبالأجمال أخذت مسحة جمال جديدة توشح أنحاء البيت.

كنت قد بدأت لتوي، وقصتي هذه لم تنتهي بعد، بكتابة قصة جديدة، ولتوها بدأت تنثال الصور والأخيلة والأفكار، وأذا بصرخات حادة

متقطعة تقتحمني، هرعت الى غرفة المنام حيث زوجتي، وجدتها تتلوى كمطعون، حملتها راكضا الى السيارة، وعلى الفور أنطلقت الى المشفى، وأنا في الطريق أنتبهت الى بطنها وقد تكورت بنحو لافت لم ألحظه من قبل، .. متى حبلت؟!.. لست أدري..

في صالة الولادة، كان الدكتور"المختار" حاضرا مع زوجتي التي أصرت أن لايستولدها غيره ... بينما كنت أمكث في الإنتظار، تتملكني موجات عاتية من الهلع والخوف، فألد بدلا عنها ملايين الهواجس والإحتمالات ..

تتصدع الأحجار، تنهمر من عيون الأبدية سيول جامحة، يخترق المستقيم المنحنيات، فتنبثق زهور غضة من شروخ في صلادة الحجر،.. يتهادى بإيقاع عذب راقص صراخ الدفقة البكر، قطرة غيث على أديم صحراء عطشى،.. ولكن أخذ يشج سمعي، في اللحظة ذاتها رعد غريب، كما لو أنه أزيز رصاصة زارقة في رأسي، عويل موجع .. ماذا هناك؟! أندفعت مجنونا، لاألوي على شيء، ركلت الباب... حسنا .. هذا وليدنا يرفس مشرقا، وهذه أمه ناقهة تبتسم، .. ولكن مابال الدكتور"المختار" مسجى على الأرض، تحيط به الممرضات المعولات، وقد أمسى جثة هامدة.

طيران

كما سمكة نافقة كنت ملقى وسط الصالة الخاوية، وحدك، كنت ملقىً كسمكة لفظتها أمواج البحر، وسكون الظهيرة يشملك، يشمل معك الصالة أيضاً. سحنتك صفراء باهتة، بهتان الظهيرة نفسه. ومسامات جلدك تتسع كثقوب معتمة. تتفتق عن أسراب نمل أسود. نمل أسود ناشط، ينبث في جميع أنحائك، يغطيك برمتك. أنا رأيت ذلك. رأيته بعد أن دعاني هلعاً أبنك. أبنك ذو الأربع سنين، أتتني هلعة تصرخ: ما..ما..ماما.. النمل..النمل... جرجرتني الى حيث ترقد، جرجرني ولم أك لأصدق إذ رأيت ما رأيت.

بالأمس فقط، كنت تردد وتفيض عنفواناً وحياة:ـ أيتها الصعاب. سأقهرك. سأفتتك ذرات لا مرئية، وسوف أسحقك، جذلاً، بجزمتي، عابراً إلى الغد.

فما الذي جرى؟!!

عيون سود عميقة توزعت أنحاء جسدك الهزيل، تتقيح أسراباً تلو أسراب من النمل تلو أسراب. رحت أهش عليها بمئزر قريب. أضرب

حشودها وأصرخ. أصرخ بفزع وأرى. أرى حدقتيك المشرعتين تتسعان، تتآكلان. وشدقك مفغوراً على نداء ما، نداء يريد أن يخرج ولا يخرج.. في الباحة هناك، قرب الباب الخارجي، كانوا يقفون، أصدقاؤك وذووك، فلان وفلانة وفلان..، يقفون بوجوه مسطحة، وأفواه فقط.

كنت أستغيث بهم، استنجدهم، غير أن أفواههم كانت تنفتح وتنغلق، ثم تنفتح وتنغلق، لكأنما يشتبكون بجدل عقيم، نافدي الصبر، بإنتظار نهاية المشهد، ربما لينفضوا أخيراً كل الى مبتغاه... كنت أصرخ بهم وأهش حشود النمل المتكاثر عليك، صدرك، رأسك، كتفيك وساقيك، أصرخ بهم وأوتار حنجرتي تكاد تتقطع، ولكن لم أعرف، هل كانوا طرشاً، أم كنت خرساء؟!

جرجرني أبنك مرة أخرى. جرجرني ولكن، هذه المرة، نحو الخلف. صارخاً بملء أيضاً:ـ ما.. ما.. ماما.. النمل يمسك بك.. ذعرت، تراجعت والتصقت الى الحائط. أخذت أنكت ثوبي، وأصرخ. دائماً أصرخ. ولما لم يكن من نجاة أو من مجيب، هرعت إلى الخارج، أليهم أصدقائك وذويك، دفعتهم، جررتهم، ركلتهم، ليجيئوك، ينتشلوك من طوفان النمل. ولكن لم أك لأعرف، هل كانوا شواخص من حجر، أم أنني معدومة القوى؟!!

وسط ذهول الجميع، أخذت ترتفع عن الأرض. تحملك أفواج النمل، أذ نبتت أجنحة لها، فأستحالت حشرات طائرة، تحيطك، تحف

بأطرافك، وبروية وهدوء، تفصلك عن الأرض، تصعد بك الى الأعلى. مصعوقة كنت أقرفص بين الأقدام.

مصعوقة أنظر أليك. تطير.. تطير.. أعلى فأعلى.

لامست السقف، ثم أتجهت، بطيران بطيء وقور. ناحية الباب المفتوح، خرجت. كان الحشد، حشد الأصدقاء وذوي القربى، متصلباً بأفواه فاغرة، وعيون جاحظة تتسمر عليك، فوق رؤوسهم، سكنت طائراً للحظة، فأصيب الجميع بذعر مفاجئ، ولاذوا بالفرار نحو جهات شتى، فيما رحت تطير وتطير، أعلى فأعلى..

الصرخة الأولى

* إلى روح أسماعيل عيسى بكر

الأمر الملغز الذي وهنت محاولات إدراكه حتى الساعة: لم هذا الكم اللامحصور من الأرحام لإمه؟!..وكيف تمكنت من الإتصال ببعضها، كحجرات تنتظمها دهاليز لا نهائية في كهف عظيم؟

وجد نفسه مرة في بطن واحد من تلك الأرحام، مكوراً يضم الى انبعاجة بطنه، ساقيه وذراعيه، وعلى الرغم من أن حكمة الأيام منثورة بوضوح ما بين غضون جلده والشيب في مفرقه، ظل فمه ملتصق الشفتين، ينوس لسانه فيه، كطائر مكبل في قفص.

كان متكئاً الى عمود معدني ذي قطر عملاق، يقوم شاهقاً فوق دكة كونكريتية عريضة، تغلفها قطع من السيراميك المنقوش بإيقونة رجل كث اللحية وشعر الرأس، عار سوى أنه يستر وسطه بخرقة بالية، فيما ينوء ظهره بحمل صخرة جبارة، مناضلا للأرتقاء بها الى أعلى..

الدكة تلك ، تحتل مركز باحة ضيقة صلدة كما قبر، في الوقت الذي تبدو فيه مطاطة كما رحم..، تكتسي جدرانها بحلل متباينة، تلتبس النهايات منها بالبدايات، إذ لا فاصل بين تكويناتها وألوانها أو أنوارها

وظلالها، على الرغم من وجود كشافات كهربائية هائلة الإضاءة، هناك في أعلى العمود، ذوات حدقات متسعة، تبعث بوهج أشعتها بكثافة لا تضاهى، الى أدق ما تشمله الباحة.

تبدو عائدية الباحة لمحطة قطارات مركزية، ويمكن للمحطة تلك ان تكون في قلب مدينة عصرية، فيما تشير الدلائل، بالتواتر، أن الخرائط تلفظها...

كل داخل الى الباحة لابد لرجليه أن تبتلا، فعند المدخل لا يسعك تحاشي صنبور للماء، أعتوره عطل فجعل الماء يتبدى فوق مرمر الباحة الصقيل بلورياً صافياً، يعكس كما المرايا، صور الأقدام الراكضة التي تنثر الرذاذ على بعضها البعض وصوب كل إتجاه، فتتشظى- بفعل ذلك - قطرات الماء وقطع المرمر في مرأى بانورامي لايتسق مع نسق سوى نسقه.

من موضعه ذاك، فوق الدكة، منبعجا يضم الى بطنه اقواس ساقيه وذراعيه، اخذت عيناه تتمردان على أغماضتي جفنيه الثقيلين، تجوبان المجاهل المحيطة، رأى في أستقامة نظره، قطة وكلبا يتماطلان تحت نثارالماء ، يتبادلان الفر والكر، التحت والفوق، تلتحم أطرافهما وتنحل، مغمورين بشبق مضمخ بمواء متأوه ونباح مثير، ما جعل النثار يتطاير أكثر فأكثر، ليلمس في الجوار أربع أرجل تتمرأى واضحة أسفل مصطبة خشبية، أثنتان كبيرتان والأخريان ضئيلتان، متخالفتان رجل فوق أخرى، كل زوج بمفرده، لم يلبثا أن إنحلا رويدا، لتستقران فوق

أرضية الباحة المرمرية، والماء منساب يحيطهما. راحتا تتحاوران بوجل ماانفك منحسرا ، ليشتبكا بجدل في سورة هياج لم تسكن حتى أفضت بالمصطبة لأن تصبح بثماني أرجل...

سيح الماء المتسارع أجتاز الباحة، وصل حيث السكك الحديدية، التي كانت تتلوى كما بطون الحيات، وذات السيح يشق، متعامداً عليها، سككه الخاصة، أما مؤخرات القطارات الرابضة فقد ظلت تختض كأرداف خيل تلسعها سياط المتبارين، من دونما إعلان عن مباراة، متأهبة ترنو بإعناقها صوب أصقاع لا مرئية، وقع حوافرها ينتظم، بتناغم فريد، مع حوافر أقدام المغادرين الراكضة، تسابق السيح المتصل ورذاذه، بغيرما مبالاة بالبلل الذي راح يمتص دؤوبا طلاء الاسيجة الملونة، لتنفلت من سطوحها، قبيل أن يلمسها الماء، فراشات هلامية، سابحة في سماء لا لون لها..، ويمضي البلل مزدرداً بشهية كل ما أشتملته الباحة، حتى أن مرمر الدكة الصلد راح ينحت فيه الماء جارفاً، في ممراته الخاصة ما تهاوى منه ومن إيقوناته وراح الرجل، حامل الصخرة الجبارة، مهشما، مفتتا، يطفو مع أعقاب السجائر والاكياس الورقية المدعوكة ونفايات أخر، على سطح الماء...

العمود المعدني العملاق نفسه أخذ يحتمي من التداعي مختبئا وراء من كان يضم الى انبعاجة بطنه، ساقيه وذراعيه، والذي أخذ يتصالب الان و تنتصب هيئته، كما لو انه ينتفض، بغضب، محتجا على ماتشهده عيناه .. بعد حين بدا أن سحب دوار ما، بدأت تتجمع في رأسه، لما

كان نظره مسمراً بمرأى دوران لاهث لدجاجة منفوشة الريش، تدحرج قبالتها، بسرعة مضاعفة بيضة، محدثة جلبة ورذاذاً متصاعدين أخذا يدفعان به حثيثاً الى تخوم الإغماء، فأمسى مغشيا عليه، ولم يزل موثوقا بوثاق خفي، لايبصر سوى مقطع ساكن من البياض، وتاه عليه أخيراً من كان يدحرج من...

الماء في سيحه المتناسل بلغ اطرافا تمرأت هناك على شاشة اسيجة بعيدة، أو قريبة .. لا أحد يستطيع الجزم. ليختلط الماء بسوائل حمر، إذ كان هناك عنق هش لجسد حمامة بيضاء، كانت تمخره مخالب باشطة لذئب أملح مشدود العضل، أضراسه النافرة سادرة تعلك اللحم الترف، و لسانه الناشف يلعق، بتشف وإلتذاذ ما كان يسيل منها.

بعد حين أخذت القطرات المختلطة الهاربة تصنع عند مساقطها، في غفلة من وعي الكائنات، أنصاف كرات من ماء أحمر، تجسدت بهيئة خوذ خاكية اللون، فرغت من رؤوس معتمريها، فيما راح جزر الماء ومده يتجاذبها دونما غاية.

أختفت بتوال ومن دون فواصل كل ألوان الأسيجة والأرض، و أمسى الأحمر لوناً طاغياً يسود كل جنبات المشهد. نبس متسائلا: ـ لم الأحمر ذاته على الدوام، لوناً للمنبع وللمصب؟.

لحظتئذ بلغ الذروة أختلاط ألوان وأصوات وسمات الكائنات، فأشتبك حد الأندماج النباح بالمواء، والهديل بالعواء، والضحك بالبكاء، فيما أرتعشت بنحو لامثيل له أجنحة الفراشات المنفلتة بطيران لائب، باحثة

عن وجهة ما، صافعة إينما حلت إنبعاجات جسده التي راحت تختض وتختض بنبض شديد الوقع، يبعثه معدن العمود الذي عاد منتصبا شاهقا للتو.

نظر الى أعلاه فرأى ذراعا فولاذية ناشطة تهوي، لحظة تلو لحظة، فوق علامات ماسية مبثوثة بدقة في محيط دائرة بلورية شاسعة، كان العمود ينوء بحملها. عندها أطلقت القطارات المستنفرة، والأضطراب شامل كل شيء، صافراتها مجتمعة، فأطلق هو أيضاً، منفصلاً عن العمود، صرخته الأولى.

توق قديم

كأي لص، ظل مستثارا متربصا، منذ أن هجع ليلا أفراد عائلته جميعهم، أمه وأبوه وأخوته ذكورا وأناثا، وقد توزعت مناماتهم سطح الدار.

كانت الساعة، على وجه التقريب، قد جاوزت منتصف الليل، وهو وقت يكون فيه سكان المدينة قد غطوا في نوم عميق، بعد نهار تعب ومشقة في طلب الخبز.

حين أخذ يرفع رأسه شيئا فشيئا، كان القمر الخريفي واهنا في إضاءة الموجودات بما يجعل حدود هياكلها غائمة، أجال ببصره، بتركيز مضاعف، في أنحاء السطح ليطمئن من خلود الجميع الى النوم، ثم جلس متوفزا، مستقيم الظهر، متلفتا يمينا ويسارا، وشحنات مختلطة من الأثارة والخوف تنشط، كديدان تنغزه، متغلغلة في زوايا جسمه كلها، مالبث أن دب، محني الظهر، على أربع، متوجها ناحية الستارة المبنية من الطابوق، والفاصلة بين سطح دارهم والدار المجاورة، هناك حيث تتجمع اللحظة، بنحو بالغ القوة والكثافة، كل جوارحه في بلوغ غايته المنشودة..

كان رأسه أسفل حافة الستارة، فيما جسده يلتصق بها، كما لوكان حيوانا رخويا لزجا، تنز مسامات جلده أجمعها، خوفا وشبقا دافقين..

ببطء شديد، رفع جبهته مستطلعا، وهاله أن رأى عشرات العيون المتسعة المحيطة بأطراف ستارة سطح الجيران، شزرا تبحلق فيه...ومن خلفها تراءت منارة الجامع كرمح غليظ يشهق نحو الأعالي، أرتد فزعا وخفض رأسه بسرعة البرق، فرك عينيه لمرات، فكر أن الأمر لايعدو أن يكون وهما محضا، بعد دقائق عاود الكرة، فرأى ثلاثة أجساد تفترش أرض السطح ومهد لرضيع أقرب منها، وبدا سكون النوم وثقله مخيما على المكان، تمالك نفسه، وبذات اللزوجة تسلق الستارة، ليمسي الآن خامس الأجساد على السطح المجاور. جمد للحظة، مسح المكان مستنفرا حواسه كلها، ثم توجه الى حيث مهد الرضيع مستترا به، وفي لحظة عبرت غيمة وجه القمر فأضيء المكان، وحانت منه إلتفاتة، بغيرما أرادة، الى وجه الرضيع، كانت أبتسامة وادعة تنداح على بشرة نقية صافية، أرسل بصره عبر غلالة المهد الشفيفة فصعق لمرأى فخذين بضين ممتلئين ينفرجان وطرف الثوب ينحسر حتى المنتصف منهما.

كانت سمات الجسد الباذخة المشدودة، الواهبة المتمنعة، الصارمة الجذلة، مصدر عناء كبير، لا، بل شقاء ممض يسكنه منذ شهور طوال. الجسد الفارع من دون إستطالة، الممتلىء من دون بدانة، السامق سكونا والراقص حركة، المهيمن في صحوه ومنامه، هاهو ذا الآن،

مطروحا أمامه، كاشفا، ويعد بالمزيد، عن بعض ثمراته المشتهاة، يدعوه، وهو الجائع حد المرض، والضامىء حد التيبس، لأن يثب عليه..

على أربع حبا هذه المرة، متقدما نحو أسفل جسد " بتول" المتجبر حتى في رقدته، غير مكترث بالمتر الفاصل بين فراشها والفراش الذي يحتوي ضآلة جثمان زوجها الكفيف، ولا بالجسد الذي يليه، أبنهما الصبي،. صار الآن مقعيا عند راحتي رجليها بالضبط، وقد غدا بأكمله منتصبا، كسهم متوتر مشدود للغاية، يهم بالإنطلاق..

للحظة هجس ثمة من يرقبه، أدار بصره فأقشعر بدنه لما رأى ذات العيون المحدقة تقابله على حافات الستارة، وعددها قد تضاعف، ومحاجرها أكثر إتساعا.. ورأس المنارة البيضوي وقد غدا خازوقا .. فرك عينيه، ثم راح يطمئن نفسه أنه ذات الوهم، وهم محض .

أنحنى مادا ذراعه، فأمسك بطرف الثوب ليكمل إنحساره حتى الخصر، وأي خصر رأى؟! .. لا .. هتف لنفسه: ليس خصرا أبدا، بل معجزة!! يحق لمبدعها أن يفخر بصنعها. مرت في الأثناء غيمة شفيفة على وجه القمر، فتبدى الجسد أمامه أزرق كأزرقاق لهب، أو كأمواه بحر..

نظر الى وجه بتول، أجفانها المنسدلة، أنفها المستدق، وجنتاها، وقد رسمتا ظل إبتسامة محيرة، شفتاها الشهيتان تينتين قرمزيتين ناضجتين، عنقها المتلألىء بلور صاف، وقد أطرت جانبا منه خصلة شعر منداة

ينتهي طرفها بين تفاحتي صدرها النافرتين...، ياألهي، خاطب نفسه، لست أطلب شيئا أبدا، فقط أتركني لما تبقى من حياتي هنا ..

يدري أو لايدري، بل، يريد أو لايريد، مضت أصابعه الى مثلث الكلسون، شاهرة الوسطى، التي أخذت تنزل ببطء ورهبة وإلتذاذ، عند رأس المثلث المقلوب والذي يتوج منبت الساقين، فتغور أبعد فأبعد في لدانة اللحم المترف الحار، ... هنيهات فقط وندت عن فم بتول آهة مديدة، ولكن في اللحظة ذاتها، بدأ الرضيع يجهش ثم يعلو صوته بالصراخ، فزع صاحبنا وأنكفأ ملدوغا هاربا، ليقرفص خلف المهد، كما لو كان جرذا مهددا بالهلاك.

لم يكن القمر ليرسل أي خيط من ضوء، حين سمع نحنحة الزوج مناديا:- بتول .. بتول .. أقعدي .. الطفل يبكي.

سمعها تتثاءب وتغمغم، ثم تدنو من المهد، تتناول الرضيع لتلقمه ثديها. مستمرا بالقرفصة تمنى لوكان مكان الرضيع، يبكي كما بكى، لتدنو منه بتول فتضمه الى حضنها، حينئذ لن يعود خائفا أبدا.. تلقمه ثديها، حينئذ لن يعود جائعا أو ظامئا أبدا..

وفيما هو على هذا المنوال، ثقلت أجفانه وراح جسده مخدرا يطفو، قسما فقسما على وسائد مترفة من أحلام وردية..

في الفجر، ولحاف الليل يبدأ أنحساره، ليكشف عن دفعة أولى من نورالشمس، فيما مأذنة الجامع القريب أخذت تصدح: الله أكبر .. الله أكبر .. صحا مغمغما متثائبا، على لكزات توقظه..

كانت أمه، تسأله بإستغراب:- خيرك بني؟ ماالذي جرى لك، تترك فراشك وتنام في حضني؟.

لغو .. لا.. أكثر

(ولكن من هذا الكتاب يمكن أن تندلع الشرارة الشيطانية،
التي يمكنها أن تضرم في العالم أجمع حريقاً جديداً)
يورج/ اسم الوردة/ امبرتو أيكو

حين أولد، علي أن أبلغ الثامنة عشرة، وآنذاك سأكلف بالعمل حارساً في واحد من أربعة أكشاك تتوزع بوابات بناية مهيبة ذات قسمين، أحدهما فوق الآخر، محجوزين عن بعضهما بمكعب من الأثير، لا تستطيع الهندسة الأقليدية تحديد أبعاده، معتم في النهار، متوهج في الليل. القسم الأرضي من البناية يبدأ غائراً في الأرض، عند طابقه المرقم (-١) نحو سلسلة من الطوابق ليس بالامكان حصرها على وجه الدقة، جدرانها الواح من فولاذ صلد غير قابل للاختراق، فيما يبدأ قسم البناية الآخر (الذي نجهل كيف يطفو على كتلة الأثير المكعبة تلك) عند طابقه المرقم (١) صاعداً الى سلسلة أخرى لا حصر لطوابقها أيضاً، (جدرانها) هواء.. فقط هواء.

تقوم البناية في بؤرة لقاء شوارع المدينة، ما عدا شارعاً واحداً، نظنه مثلها، غير أنه لحظة يقترب منها، حتى يكاد يمسها، يستدير ويقفل عائداً... يزدحم على الدوام بحشود مضطربة من السابلة، مجللة بالسواد، غادية آتية، يتقدمها نعش محمول على الأكتاف، ولا يصدر عنها سوى حفيف، كحفيف أسراب نمل ناشطة في المضي الى حتوفها..

تعلو فوق كل بوابة من البوابات الأربع ثلاثة نصب لقردة من الحجر، الأول يغلق بيديه عينيه كلتيهما، والثاني يوصد فمه بيديه، أما الثالث فيصم بيديه أذنيه كلتيهما. عند البوابة الشرقية سهول منبسطة، فيما تطل الغربية على أصقاع رمل ناشفة، وأمام البوابة الشمالية أسنان ناتئة من الصخر، بينما تترامى إزاء الجنوبية رقاع شاسعة من الغرين اللدن، وتحيط البناية من كل أنحائها أسيجة شاهقة من رماح مسننة تلفها كتل من أسلاك شائكة..

البناية تلك كانت مطبعة المدينة المركزية، المكان الذي سيكون عملي في كشك حراسته الجنوبي.

.....

تصف التعاليم الحارس الأنموذج : (عبوس صارم، يمنع بحزم، دخول وخروج أية أوراق من و إلى بناية المطبعة)، لذا سأجتهد كيما أصير أنموذجاً أحوز رضا أرباب عملي، فأبتدع وصايا جديدة (ينبغي أن تنبع مناعة الحراسة، كنوع أصيل من الغرائز، ليصبح نوم الأرباب في

المستقبل هادئاً، قريراً،رضياً) فتردف العلاوات كتب الشكر والمكافآت في قيدي.. لأنتفخ كبالون ، فتخالني واحداً منهم، أرباب العمل المبجلين، حينها سأكون مفعماً بنعمة السعادة القصوى ، غير أن الحلو، كما يقال . لا يكتمل، أذ ستدهمني الغواية في قامة ورقاء لحواء مكتنزة، ستمر أناملي .كواجب تفتيش معتاد . وفي كل صباح ومساء من كل يوم على صفحتي غصنها، ستتمطى الفضيحة ناشرة روائحها، ساعة تدس ورقة مطوية بين يدي لاقرأها وسيلقى القبض علي بالجرم المشهود.

سأحاكم، ويكون قرار الحكم نقلي الى حيث المكعب الأثيري...، ترى ماذا ستكون وظيفتي الجديدة؟

هناك تلزم التعاليم الجميع بأغلاق البصر، من بدء الدوام حتى نهايته، بشريط معتم لاصق، يمنع النظر إلى نتاج المطبعة منعاً باتاً، وما عليك سوى قذف النتاج في فم محرقة لا يسعك تخيل حجمها، تحتل قلب الأثير الدامس، تستشعر النار عن مقربة ولا تبصر وهجها، يعبئ خياشيمك دخان الحرائق المتصاعد، وتمضي راكلاً كتل المطبوعات نحو المصير المحتوم..

لن أعرف . بالرغم من أن دهراً طويلاً سيمر .كم من مكلف معي،غير أن عشرات الأصوات المختلطة، تبلغ سمعي كل ليلة، تضمر مقاصدها في أحتشادها، تزحف أجواق متحدة، تتهادى برهة كفالس باهت، ما يلبث متسامياً في مارش مقرون بدوي صاخب، تندغم النبرات فيه،

تشتبك مخارجها، تتداخل، تتقاطع، وتنحل أخيراً في نشيج جارح لـ (محمداوي) يقطع نياط الروح، يبثه أحدهم شاكياً وحدته السقيمة وقد أنفض الأحبة عنه..

لن أعي ما يحدث!.. أكاد أجن.. ألكز أحدهم بمرفقي لمرات قبل أن أسمعه من غور سحيق:

. ها.. من؟

. يا أخي، بالله أغثني..

. ماذا هناك؟

. أعرف فقط، ماالذي نفعل؟

. نحرق الأوراق.

. نعم، ولكن لم؟

. اولاً: نرسخ الواقع ..(الضوء) يميت الأحلام.

ثانياً: لاجماع مع (الضوء).. نحدد النسل.

ثالثاً: نشيع(البهجة) ..نبدد (وحشة) ليل المدينة.

رابعاً: تلزم (الضباع) مرابضها.

خامساً:.....

سادساً:.....

..... ثم، ألا ترى معي، أيها الأخ، أن الأوراق لا تحمل سوى لغو.... لغو لا أكثر...

الديك

لم أك أعرف، ساعة وصلت المدينة، أنني في سبيلي إلى السقوط في براثن شبكة لا خلاص لي منها... ولم أك لأكتشف ورطتي تلك ألا بعد فوات الأوان، بعد أن أمسيت أسيراً أعزل، لا قوة لي ولا حول.

حفيت قدماي، مفتشاً عن فرصة عمل، طارقاً الأبواب كلها منذ شروق الشمس حتى مغيبها، لأعود مساءً بساقين خائبتين، أجرهما خيطين باليين، أو تجراني إلى حيث الرصيف المحيط بميدان المدينة الرئيس، أتكوم عليه مع كثير من أشباهي، متكئين الى أعمدة النيون، كتلاً شبحية في بقع مضاءة بشحة، تقتات بقايانا، ونرقب شاشة الاعلانات الضوئية الضخمة المنتصبة قبالة الميدان، وقد ضهر على سطحها هذا المساء الأعلان التالي:

(فرصة عمل!! فرصة عمل!! لمن يجد الكفاءة في نفسه التوجه فوراً الى العنوان التالي: المنطقة الغربية ـ رقبة الجسر الكبير ـ الشركة العظمى للاستثمار)

من فورها، هرعت المئات تريد عبور الجسر المنبثق من ميدان المدينة، كما لو أن مدا بحرياً عارماً، طرأ تواً، فجرف الوف الزوارق الصغيرة المسلوبة الإرادة، دافعاً بها إلى حيث لا تدري..

وجدتني راكضاً، محاطاً بالحشود، ومأخوذا بفكرة واحدة مهيمنة.. أن أحظى بفرصة مهما يكن الثمن...، كان التناكب والزحام في أقصاها ، وحيز المكان يغص بالحشود اللاهثة، التي كلما ركضت أكثر، أستطال الجسر أكثر، ونأت رقبته عن الامساك بها، ألتفت بعد قليل لوجه النهر، ألفيته كدراً، أذ غطته أفواج من رؤوس السباحين، تضاءل الأمل في نفسي وأنغلق الأفق أمامي، وتسلط هاجس ثقيل، كفأس تدق بلا هوادة على صندوق رأسي.. كيف لي الفوز . وأنا الجائع والمنهك والمخذول . وسط هذه الحشود المستميتة للوصول؟...

كنت أسمع بين أصوات شهيقي وزفيري أصوات صراخ وعويل، أدرت رأسي نحو الخلف، فرأيت الكثير قد سقط صريعاً، تدوسه بلا مبالاة، أقدام الراكضين، تقضي على المتبقي من حشرجاته .. للحظة، جفل بدني، أذ غاصت أحدى قدمي في بطن أحدهم، فصهل كحصان كانت قد كسرت ساقه...

عند التحدب الأقصى للجسر، رأيت هناك كرات الرؤوس ترتطم ببعضها، كنقاط حبر سود مقذوفة بلا أنتظام على وجه ورقة رمادية، وفيما تنجرف الحشود هكذا بلا ايما روية، فجأة شرخت صرخة هائلة كبد السماء كخنجر، أذ انهدمت واحدة من درفتي الجسر، مسقطة

معها كتل كبيرة من الاجساد، كما لو أنها قطع قيرية أنحلت وسقطت عن سقف قديم...، ومع هذا، ظل الجميع منهمكاً بالركض، غير مبال بما حدث، مساقا بقوة خفية مجنونة...، ربما كان ذلك تعلق الأعمى العشوائي بحبل نجاة واه في ليل بهيم..

كانت الحشود، بعد زمن لا يمكن قياسه، تضغط اجسادها بدفع شديد على أسيجة مكتب الشركة المذكورة، يتفاقم صراخها في سعار متصاعد، فيما تنغرز رؤوس الأسلاك في جلد الأبدان غير المبالية... دعا أحدهم، عبر مكبر صوت، إلى الهدوء، مرحباً بالجميع، طالباً منهم الانتظام بصفوف، أذ سيعرضون على لجنة من المشرفين تفحصهم وترشح المناسب منهم لملء الوظائف الشاغرة. وسرعان ما أنتظمت شبكة طويلة كثيرة الالتواءات من أشباح، أو ضلال أشباح، تتشكل سحناتها بأصفرار متماوج عكر. ظهرت اللجنة التي تتكون من عدد من رجال بشوارب ثخان ووجوه عابسات، ومضى كل منهم يحلق شزراً في عيني المتقدم للعمل، ثم يجس عضل كتفيه وساقيه، ومن كان يحوز القبول، يفصل عن طابوره في طابور جديد أخذ يتشكل تواً.

حين تكشفت عباءة السماء عن خيوط الفجر الأولى، كان الطابور المنتخب يضم عشر المتقدمين، بينما تفرقت الحشود المتبقية مثل نفايات كنستها الريح..

وجدتني ضمن الطابور المحظوظ ، الذي أقتادوه الى باحة عريضة بعد أن قسموه مجاميع، يدير كل مجموعة منها واحد من المشرفين، وكانت قد أنيطت بكل مجموعة وظيفة محددة، فغدت تعرف المجاميع بأسماء وظائفها: مجموعة الاطعام، والسقي، والتنظيف، والصحة، والتدفئة والتبريد.. وغيرها من الوظائف التي كانت تلبي أكبر الاحتياجات وأصغرها.

خطب أحدهم بالمجاميع، وكان مسخاً ذا شاربين كثين، يدعونه (المخول)، أكد للوافدين الجدد أنهم ومنذ هذه اللحظة، صاروا أعضاء أصليين ضمن هيكل العائلة، وهذا وحده شرف كبير لحامله، يلزمه أن يفنى .كما هو واجب العائلة المقدس . في خدمة الأب... حاول بعضهم أن يسأل أو يستطلع، غير أن الردع كان أبلغ فعلاً من أية محاولة..

دقت الساعة الدقة الثامنة، فعوى بوق العمل، تفرق الجميع عبر ممرات منتظمة، تخترق صفين من الاقفاص، بهيئة سلاسل لولبية تتصل بداياتها بالنهايات، الصف اليمين: أقفاص معدن كبيرة لامعة، أضلاعها زجاج ملون بهيج، تشتمل أعداداً هائلة من دجاج أبيض موفور العافية، بينما تنتظم يساراً: أقفاص حديد صدئة، ليس لها نوافذ..، عرفنا فيما بعد . أنها غرف معيشتنا.

كان الحقل . موقع العمل . مقاماً على عدة هكتارات مع الأرض، ويشتمل . عدا الأقفاص . على قاعة كبيرة ملحقة بقلعة مهيبة، يمنع

الاقتراب منها، فضلاً عن القلعة بشكل مطلق، لذا باتت لغزاً مستغلقاً على الجميع، حتى نبس أحدهم ذات ليلة، وهو يتلفت مذعوراً:- تلك القاعة.. هناك.. هي قاعة.. التفريخ..، سكت بالعاً ريقه لمرات، ثم أضاف:ـ لا يدخلها سوى.. الأب.. عند أنصاف الليالي... ولا يغادرها ألا.. في أول.. الصباح...

لم يكن الأب ليظهر للعيان. فطوال كل ذلك الزمن الذي استغرقه عملنا، لم يحظ أحد مرة برؤيته. كانت أوامره وتعاليمه تردنا فقط عبر ممثله(المخول)، في حين راحت صورته تتشكل في الاذهان من نتف أخبار وحكايات، تقاذفتها الافواه، فبدأ برأس ضخم كثور خرافي، وجسد بالغ الجبروت كديناصور، وأطراف أخطبوطية عملاقة.

تحمل جماعة متخصصة، كل مساء، وحسب الحاجة، عدداً من الدجاج المسمن جيداً، الى المطبخ الكبير، وهو بناء فاره ينتهي بدهليز ملتو ملحق بواحدة من زوايا القلعة، يسمح بمرور شخص واحد فقط، تستخدمه جماعة حاملي الاطباق. وتجري في المطبخ الكبير عمليات الحشو والشواء لأعداد وليمة فاخرة، تقدم في الدعوات المسائية التي يقيمها الأب يومياً على شرف ندمائه. لم نر واحداً منهم قط. لتكتمل لذة مضغ اللحم الطري المحمر على أنغام موسيقى خاصة تصدح بها حناجر الدجاج، فتروق الخواطر وتبتهج حين يتم أخيراً تبادل أنخاب السهرة المؤلفة من نبيذ مركب، تكون دماء الدجاج نفسه جوهر قوامه..

.....

في ليلة كانونية باردة، أكتمل خسوف القمر، وتراءت السماء كما لو كانت لوحا معتما صلداً، أنبثت فيه أسراب كثيفة من غربان سود بمناقير معدنية، حومت عالياً، وبدت متأهبة لمحق كل شيء. أبطأ الزمن من عدوه المعتاد حتى توقف.

وفجأة عصفت ريح من نار، زلزلت الأرض، وأقتلعت كل الأقفاص، وراحت قرقعة أرتطام المعدن الملتهب ترج الكون برمته، تختلط مع أصوات أستغاثة مدوية. كانت لحظة شاسعة، تمطت حتى أمست دهوراً، فجرت شرراً وحرائق شهقت ألسنتها حتى عنان السماء...

لم تنجل الظلمة ألا عن سماءٍ مكسوة بحمرة قانية، أمطرت ماء أسود، وخراباً وموتاً شملا كل شيء. تطلعنا حولنا فوجدنا الاعداد الهائلة من الدجاج . موفور العافية . وقد غدت أكداساً من الجثث أمتزجت بها جثث أخرى كثيرة.. للحظة، صرخ (المخول) وكان قد نبت على حين فجاءة من تحت الركام:. تجمعوا.. تجمعوا.. وأحملوا من هذه الأكداس زاداً للوليمة، فبعد قليل يحين الموعد...، أمتثل جميع من خلفتهم الكارثة..، سوى صبيا له وجه كما فلقة قمر وطول كما جذع نخلة، تلبسته، وسط ذهول الجميع والصمت الذي يكاد أن ينطق، حالة هياج غريبة وراح يصرخ من دون توقف : لا .. لا .. لا ..

كما الذئاب تكالب عليه رهط من ذوي الشوارب الثخان في محاولة لإسكاته، صرع واحدا ثم ثانيا وثالثا منهم، غير أن كثرتهم غلبت شجاعته، سقط مدمى ولم يفتأ يصرخ بذات" اللا" حتى أمعنوا بجسده طعنا وبفيه تكميما، وبعد ان لم يعد من نفس فيه يعين على الصراخ، أقتادوا جثته ليركنوها الى عمود كهرباء يطل على الساحة الكبرى في الحقل، ثم ليعلقوا، في الحال، لافتة على العمود أعلى رأسه مكتوب عليها بحبر أحمر" هذا مصير كل خائن" ..

مشلولين أو منومين حملنا مقداراً من أكداس لحم الدجاج، وبسرعة غريبة أعدت الوليمة، فتقدم موكب مترنح من حاملي الأطباق، لكن لغطاً ما، راح ينتشر سريعاً، كما لو كان ناراً سرت في كومة حطب يابس..، مشكلة الوليمة كانت قد عولجت ولكن كيف هو علاج مشكلة الموسيقى؟!..

تملك هلع عظيم أبدان الجميع حتى (المخول) ذاته، لم يعد بوسعه التحكم بأطرافه..، بلحظة، هتف صارخاً:. رددوا ورائي..(قيق).

أستجاب أحدهم:. (قيق)..، تلاه آخر:. (قيق).. ثم آخر:. (قيق)..، ولم تمض سوى ثوان حتى راحت (قيق) مموسقة، طويلة، واحدة، تهز أركان القلعة وأسيجة الحقل.

بناة العدم

[النسيان زبد يصنعه المد الغاضب تارة والساكن أخرى، يقظم هائجا او رقراقا بتشف والتذاذ جروف حياتنا الرملية، يمحو ما نورثه اياها، يحيلها كل نوبة مستويات ملساء تغري بالكتابة نوبة أخرى، ونوبة أثر نوبة تغدو اللحظات الهاربة صفوفا من شموع منطفئة او سدما داخلة في غياهب الازلية خارجة عنها الى غياهب الابدية، فيما تنوح الريح شاكية ملتاعة لتدمع الشموع خرساء حتى لا يبين منها سوى تكسر ذبالة من ضوء واهن يكاد يخبو ويزول..]

غيبت متاهة الدروب المختلفة لمدينتنا العامرة اسلافي البنائين، حتى أمست اية محاولة للعثور على واحد منهم محاولة للعثور في ظلمة دامسة على ابرة مدفونة في كومة قش، وقد طال الغياب ابي الذي خلفت لحظة فقده في قرارة روحي هواجس شتى، تناهبتني حرائقها، ورحت مكدوداً ممزقا اجد في البحث عنه.

في شعب المسير بغير هدى صدمتني ربوات مخوزقة بحفر، نفذت اليها نيازك من سدم مجهولة، حواف صخورها الصماء انصال باشطة، تناثرت حولها اكداس من جماجم وعظام، نائت بحملها سقالات

مهلهلة، معقودة بحبال قنب مهترئة في الوقت الذي تبعثرت فيه، هنا وهناك، معاول ومطارق صدئة لما دنوت منها اخذت العظام تطقطق وتصطفق، ثم راحت الجماجم تتقافز يطوح بها هسيس مسموع تطلقه الريح، لتتفاقم حمى رقصة غريبة شملت الاكداس كلها، ولما صارت تتجمهر وتدنو مني، اعترتني قشعريرة رعب شملت بدني كله، ودفعتني للتراجع، حملت معولا، فتكاثرت لتحيطني، ذعري بلغ اقصاه، وجدت ان لا مناص من الهرب، هرولت طويلا وفي اثري ريح مشحونة بعواء موحش. تحت سماء امست تعتم متدرجة عثرت بربوة فسقطت.

[اليد المبسوطة اعلى الطبقة السابعة من الزقورة، اليد الحانية الذائبة واللحظة كفارزة في الزمن، تشف اطراف انواملها عن فيض قطرات عرق البنائين ودمائهم، يمهدون السبيل بيسر لهبوط الآلهة كيما تبتهج واعراس مزعومة للمدينة.. ترى .. هل قدرت تلك الآلهة المسترخية المترفة،مبلغ المكابدة وكثافة العناء، في جعل فارزة اللحظة تلك ذلك البرج العظيم؟..

هل خطر ببال زوج كبير المهراجات المصابة بأكتئاب المزاج لحظة واحدة، ان علاج كآبتها المقيمة تلك سيغدو شاخصا خالدا في الزمن؟ هل ابتهجت لما رأت اثقال الآجر والصوان تقصم اوساط بنائي تاج محلها؟ ثم هل شفيت وغادرها الداء لما انزلقت السقالات وهوت بمن عليها من شاهق نحو المثاوي الأخيرة...

ولما فار النهر العظيم غاضبا فوران قدر تضطرم اسفلها آهات مستعرة وجرى في مسايل ونهيرات عادت اليه القهقرى، يدفعها موج عارم متدفق من قيوح وجروح بنائي الهرم الاعظم كيما تنعم روح الفرعون بطمأنينة مرتجاة في منتجعه الآخر.. هلا سمعت اذناه الطرشاوان انات ارواحهم وتوجعاتها؟.. وهل شعرت سياطه اللاسعة بما اعتمل من غيظ وكراهية في اقفاص صدورهم؟..]

حجارة ثقيلة اخذت تنزاح رويدا عن جفني ليباغتني مرأى الجدران.!! حشود منها متراصة تشد من ازر بعضها، تتعامد/ تتوازى/ تتقاطع/ تتقابل/ تتبادل، تصنع مع علائقها المتشابكة تلك شواخص حية؟! هل حقا هي كذلك؟

اكاد ارى النخاع في جصها ورخامها.. سدود وقناطر ومعابر/ جماجم/ بيوت وجسور وقصور/ عظام/ قلاع وحصون وابراج/ جماجم/ موانئ ومرافئ وفنارات.. لم يترك اسلافي شبرا من الارض حتى صيروه شاخصا يختال مباهيا جملة شواخص مثله، جدرانها تشهق مغرورة متحدية ريح الزوال ومد فيض الزمن.

[ياللجدران!! سجون تتناسل على الدوام، ترتطم الجباه بها دائخة مدومة، ومن سطوحها يرتد النظر حسيرا، ويصير الشهيق زفيرا مخذولا، والصوت رجعا قريبا]

مضيت اثمل واترابي العاطلين متشردا تأويني دهاليز الليل وعطفات النهار، يلسعني الزمهرير ويسوطني الهجير، حتى غامت رؤاي وغدوت

كوم عظام ناتئ، ورحت شبحا متسكعا في المكان، المتحول زمانا، مأخوذا في التطلع والاستغراق في شواخصهم.

الى الجنائن المعلقة والاكروبول وبوابة عشتار، من كان السعيد: الباني ام البناء؟.. الى البارثينون والأخيضر وناطحات منهاتن من كان الضال: الفاعل ام الفعل؟ الى المستنصرية واللوفر والارميتاج، من كان الحائز على غايته: المشخص أم الشاخص؟..

بعد لا ادري من الانواء سمعت نحيبا موجعا، حبوت حتى مصدره فكان بئرا ناضبة تلقي السماء في جوفها نورا واهنا وفي القرار منها رأيت بالكاد شيخا طاعنا في الهم ينكفئ مهدما، ولما ايقنت انني اعرفه صرخت لاهثاً :

. أين العشبة يا شيخ؟

ارتفعت بتمهل جبهته المخددة بالعناء فلمحت حبات لامعة تنسرب من عينيه، خلل شعر ذقنه الشائب، ثم ارتفعت سبابته النحيلة مشيرة الى السماء، فرفعت بدوري بصري اليها، هالني أن رأيت افعى تتلمظ هازئة بلسان ذو اذناب ومحاجر وامضة تقدح شررا يتطاير عبر الانحاء، وفي التو سقطت مغشيا علي..

[الذاكرة تمارس محوها الخاص تصطرع والنسيان ابدا، تكتب ذاتها بفعل آدمية هشة، تحاول احالة البياض نقوشا ليصبح العدم وجودا، واللاحدثية حدوثا، جاهلة في غمار نضالها ان النقوش ضامرة بالبياض، والوجود ضامر بالعدم، والحدوث ضامر بلائه، وبتوال ليس منقطعا

تعرض الشاشة اصطراعا متناميا وتعاقب الفصول، فلحظة لقوى النسيان يعتم فيها المشهد ليعم اليباب مدججا بخوازيق الفجيعة، واخرى يغمر النور الباهر فيها الرقعة لتحتشد باعراس البناء فتأتلق المباهج والمسرات..]

أنهم اسلافي .. تشتعل من ذكراهم في جوانحي منة وحسرة، المنة نار والحسرة زيت، تتأجج الحرائق فيطفح زغب نداء البناء فوق بياض عيوني وليس من مجيب للنداء، عاطل اهش ذباب البطالة في النهار واهرش جلد الارق في الليل وليس من حيز ايما حيز للروح اللائبة تجد فيه ضالتها.. في حناياي رغبة حارقة للثأر!! على الرغم من أن دبيب التصحر يسري فيها كنصل خواء، يستل من شرايينها زلال الحياة، يحيلها سواق يابسة تعرش على حوافها اشواك واخزة، تمكث في صمت الانتظار، تتأمل، تعود بتتابع عكسي لما فرغت منه اللحظة الماضية/ الساعة الماضية/ اليوم../ السنة.. الدهور التي لفها النسيان بمعطفه الوغد، ماذا فعلت يا آدم ثم ماذا جنيت؟ أتكون اللعنة المؤبدة جندلتك حتى هذه اللحظة؟ اهي خطيئتك الاولى؟ من قال خطيئة هي؟ ربما كانت محض افتراء الصقته بك ثلة من آلهة عابثة، افلا تحدق ممعنا في عين الزمن؟ الا ترى انها تتكئ هناك على وسائد فجيعتك تتبادل الخاب سحاب دموعك ودمك وتقهقه رعدا وصواعق هازئة من صخرتك المنقلبة ابدا اليك لتعود حاملا اياها الى المرتقى؟ واي مرتقى هو ذاك يا آدم؟..

كورقة مض بها الماء، بلها حتى بلت، عييت فنمت ورأيت فيما يرى النائم جبارا متجبرا متوجا بدرر يخطف بريقها الابصار يعتلي عرشا فارها يعوم بلا قوائم في الفضاء تخشع لمرآه الجليل النفوس قبل الابدان، قادني مكبلا الى حيث مجلسه المهيب مارد عملاق، ركع حتى لامست جبهته الارض وقال:

. مولاي.. لقد احضرت المطلوب.

مرت لحظات صمت ليس كمثلها لحظات صمت، وبصوت ليس كمثله صوت قال المتجبر:

.كلا ليس هو لقد أخطأت.

وعلى الفور تراخت قيودي فيما المارد ينبس مخذولاً

. عفوك مولاي.. عفوك.. غفرانك وعفوك..

وبذات الصوت رد المتجبر:

. اطلقه الآن وعد الي وحدك.

سقط المارد هامدا كجبل امسى تلاً من الرمال وتبخرت للتو كل قيودي فصرخت:

. الا تسمعني يا متجبر؟

أشار لي إن نعم وعدت اصرخ:

ـ الصفر هو الصفر، اما الموجب والسالب محض هراء ولذا سأكون انا البدء وانا المنتهى فلم اذن تجعلني اكابد الغواية؟

ارتجت عطفات الكون لما ضحك وزلزلت لما قال:

. حسنا ماذا تريد؟

في اللحظة التالية شع بريق عيني ابي، ولم ادر سوى ان معولي ينقذف الى المتجبر كما البرق لتظلم جبهته النورانية فيعم الفراغ..

استيقظت.. الفيتني واقفا في وسط الحديقة الكبرى للمدينة أشيع البهجة في الانحاء وصوتي يرعد:

. انا بناء.. انا بناء.. بناء.. بناء..

والحشود تتجمهر متدافعة حولي، صراخها يطبق الآفاق كل منها يدعوني:

. ابن لي قبري هنا.. ابن لي قبري هناك..

حملت فتياً منشرح الصدر عدتي، مبتهجا واثقاً، مقبلا على العمل.

رؤيا اللجة

(وشاهدت في اليد اليمنى
لمن يجلس على العرش
كتاباً ملفوفاً مكتوباً على كلا الوجهين،
ومختوماً بسبعة خواتم،
وشاهدت ملكاً قوياً يصيح ملء صوته:
من هو الجدير بفتح الكتاب وكسر أختامه ؟)
سفر الرؤيا / أصحاح٥ / العهد الجديد

بعد جدب لا مرتجى منه، وجفاف وقحط، قلنا: هل سنبل أشداقنا المفغورة نحو السماء بحبة قطر؟، وفيما نطيل التحديق اليها، علها ترق وتشفق، ألا وماء كثيف يغمر كعوبنا ونحن وفلكنا قيام في واد غير ذي زرع، تملكتنا دهشة وأعترانا أنبهار.. لما نظرنا أسفلنا، ماء أحمر قان ذو رغوة ينساب الهوينا آتياً من أعلى الوادي. قلت وأخوتي:ـ من أين يندفق هذا الماء الأحمر؟!، أحدنا قال:ـ هو هطول غزير لآهة مثقلة..، تبعه آخر:ـ لا.. بل هي عين من كبد الوطيئة أنبجست..، وقال آخرون:ـ أنما هو بركان مؤجل، حبلت به الأرض

وأدلقته الساعة..، تفشت دربكة فينا وأضطراب، طلبت الى أخوتي:ـ أن تريثوا، وتذكروا نبؤة الأجداد.. أنها اللجة أيها الأخوان....أنظروا الى المياه ترتفع.. فهملوا نمتطي الفلك لنأمن الغرق.. وهكذا أرتقينا الفلك الذي قدت أطرافنا وأحدودبت ظهورنا حولاً بعد حول نصف أضلاعه من خشب جفر، حملناه جذعاً فجذع، رصفناه مساكناً، وطليناه من داخل وخارج بالقار، ولقد توحد بنا، وتوحدنا به..، ألا غيلان أخونا، نبعة أرومتنا، وأشرقنا نضارة ورونقاً، فقد تلبسته جنة لانفقه منها سوى جحوده، معتقداً أن خلاصاً على فلك في عرض لجة أنما هو تيه وضلال، وهكذا، بتنا هلعين أنه صار من أبناء الحتوف. ناحت كثيراً نياط قلوبنا بغيبته، وظلت مكلومة لهجره، غير أن هاجساً مكيناً يشملنا، أننا واجدوه يوماً، فينعم جمعنا . بعد الشتات، بالمن والسلوى، قلت: . هل ركب الجمع؟

أجابوا واجمين:. ألا غيلان..

قلت:. هذا شأن من ضل.

كان الفلك يطفو سراعاً مع أرتفاع الأمواه المحتدمة، وحين بلغت خمسة عشر ذراعاً بانت العلامة الثانية للنبؤة، فقد طفح فوق مستوى الموج على مرأى منا، رأس عظيم لسمكة ذات قرن، قلت:. آتوني بجديلة متينة.. صنعت منها عقدة في طرف، رميت به إلى قرن السمكة فعلق، ثم أوثقت الطرف الآخر الى صاري الفلك، فصرنا قوما مجتمعين على حوض فلك، تقدمهم سمكة في عرض لجة حمراء لا ضفاف لها،

تكللنا والفلك سماء تلامس فروات رؤوسنا، فاحمة مدلهمة، حتى أختلط الأمر علينا، فلم نك نعرف على أي من السطحين ـ الأحمر أو الأسود ـ كنا نسير؟!.

الأضطراب المتفاقم للموج يبعث في الحنايا هلعاً تكل عن حمله، يقذف بالفلك ذات الجانبين وذات العمق، لا يردعه عن كارثة أغراقنا سوى سير السمكة المتئد، وقد سطعت على صفحة خالها دائماً، عيناً عذبة حانية كقارورة دبس، أخذت تشيع فينا السكينة، وتطمأننا بسلامة الوصول... لم نك نعلم هل كان الوقت شفقاً أم ضحى، طوال المسير تمر بنا الأيام غامضة، نصحو وننام والسطحان أزلاً كما هما، لا دنو أو لقاء، الأحمر والأسود، كل سطح مكتف بذاته، سائرا في نهجه.

ذات حين.. تناهت ألي جلبة ما، نهضت من رقدتي ناضياً ما علق بي من أهداب النوم، أتراه طيفاً ولم أزل في وهدة الرقاد؟!.. لاحت هناك عند الافق تباشير شعاع بارق متصل بين السطحين، أغشت بصري وسربته، ثم صارت تنحل خيوط الجلبة مع فوت الفلك شبراً فآخر قبالته، وللتو هتفت:. هلموا فتيتي وأنظروا.... أنتفضوا مقرورين، تفتك بهم أختلاجة حمى غريبة، حين أخترق سمعنا نواح مترع بشجن غامض أطلقته السمكة، رددت أصداءه الأنحاء.. وغدت تتضح معالم هيكل عظيم تستحيل الجلبة معه أصواتاً آدمية مختلطة.

أخذ فلكنا يتهادى، يرتقي صاعداً الى حيث الهيكل، والوادي يضيق كلما أوغلنا قدماً، لما أقتربنا وجدنا أنه لم يكن هيكلاً بل عدة.. ومن

ثغرة ما بين هيكلين دلفنا فألفينا أنفسنا محاطين بخضم عجيب من رؤوس وأذرع متدافعة تجالد الغرق، تشتبك مطلقة أصواتاً شتى، ما بين نائح ومستغيث هاتف.. بينما تصطخب الأمواه الحمراء الموغلة في البلع على رقعة ميدان عريض سداسي الأضلاع، كل ضلع فيه هيكل منفرد، تغلفه مرآة عظيمة تؤطرها أعمدة صقيلة من الرخام، كانت هناك دائماً ثغرة ينفذ عبرها واد بين كل مرآتين، المرآة التي الى الشمال الغربي محدبة، والمحاذية الى الشمال الشرقي مقعرة، أما الى جهة الشرق فمرآة لامة، تتلوها الى الجنوب الشرقي آخرى مقعرة، والمحاذية أيضاً الى الجنوب الغربي محدبة، حتى يكتمل المسدس المراياتي الى الغرب بمرآة مستوية.

الوديان الستة التي تخترق الثغور الستة تنطلق أو تلتقي دائماً عند قلب الميدان في مرتفع (علمنا فيما بعد) أن أسمه أرارات أو قيل الجودي، تعتليه منصة منحوتة بأقواس مرمرية سوداء، يشمخ فوقها منبر من خشب الزان، مزركش بلؤلؤ ومرجان، تفترش مقعده وتتكأ إليه جثة شوهاء، لم يتبق منها غير أكتاف وبطن فيما الأشلاء مبعثرة حولها، ذراعان وساقان ورأس ينط منه لسان كجندب نطاط..

خاطر ولد للتو دوم طويلاً في جنبات رؤوسنا، وأتخمها بتيارات من الحيرة تشي بتضاربها، ترى:- هل كانت هذا الأشلاء الفائرة بالماء الأحمر، كأفواه براكين، مصدر هذه الأمواه؟ أم أن تلك الأمواه التي ما

مكثت تفيض في الوديان دائبة الحجيج إليها؟! أستطيع الجزم قائلاً:- لا يدري أحد حتى الساعة، أجابة شافية لهذا..

دار بنا الفلك يتبع هاديتنا السمكة في أروقة الميدان، أو البحيرة الحمراء، التقينا في ناحية غريبة منه، جوق من الأطفال، ساهمين وادعين، لم يبلهم قط رذاذ الماء الأحمر، يتهادون مقصورين عن سطحه بحيز من الأثير. عقد العجب ألسنتنا، ولم نحر تبريراً شافعاً لما نرى!.. أنبثق نداء، على حين غرة من حناجرنا..، وما أنتظرنا حتى وافانا الملبي..، هو طفل بهي الطلة، ممشوق، رائق الحسن، بادرنا بقوله:- سأعتلي فلككم لأروي ظمأ أرواحكم لليقين. وما أن حل بيننا حتى زادت نبراسنا السمكة من فعل دورانها، فأقتربت بنا في دورة قرباً شديداً من المنصة، وكاد يلامس وجه القتيل مآقينا.. صرخنا بلوعة كليمة ملء أشداقنا:- غيلان..، فتصادحت الوديان والهياكل والسماء مرجعة:- غ..ي..ل..ا..ن..، من لم تكن فيه شدة بنفسه من أخوتي خر صريعاً، ومن مكث تصالبت أطرافه، وأمسى وجيب قلبه كقرع طبول عملاقة على أضلع مترنحة..

حدثنا الطفل الوافد بعد لأي قائلاً:- هو غيلان أو كنعان، فتى لا فتى الا هو، تقطر جبهته نور من الحكمة، وتسيل العذوبة شهداً من فمه، وتتصلب الثقة حجراً أصماً تحت باطن أرجله، قدم الولاية في ليلة خرساء مكبلاً صفداً، وأقتيد الى ميدانها لما أطل الفجر من خلف هياكلها، في يوم مشهود موعود، جرت فيه محاكمة لم تشهد ولايتنا

وقاطنوها أبداً مثيلاً لها، أذ أستغرقت ستة أيام بلياليها، بينمااحتشدت جموع وصفوف، أغنياء مكرشون يقابلون متسولين مبعوجين مقعرين، وعذراوات مخدرات محدودبات يقابلن مومسات مضمحلات مقعرات، وشيوخ وعجائز عجفاوات شرقاً، نقابلهم نحن الأطفال الساكنون الساهمون غرباً. لقد كان الخان الذي أقتاد غيلان خان الولاية وسيافها في آن، أخذ بوعيد غيلان ثم أغراءه، مبتغياً فقط اسكاته، غير أن فم غيلان ظل موصولاً بحبال سرية الى كهوف نائية.. بترت ذراعاه، تلتهما ساقاه، وتدحرج رأسه أسفل منبره، بينما ظل لسانه يواصل النط غير هياب أو وجل، حتى صاح نفر من أغنياء الولاية:ـ أن أبتروا دابر الشر. فقام الخان الى اللسان فحزه. حنيئذ بلغت السيول الزبى، حتى مس أرتفاعها الخمسة عشر ذراعاً، فغاص الحشد سادته وعبيده، ما خلا معشرنا نحن الأطفال، أذ كنا بأنتظاركم والفلك.

هنا وبينا كنا ننصت خاشعين لبيان طفلنا الجليل، صرنا نلحظ نقصاناً متدرجاً بدا جلياً في مستوى المياه الحمر، متواقتاً مع تصدع متتال على سطوح المرايا والهياكل.. ساعة كانت السمكة في دوران لاهث يتناغم وإيقاع الموج، قلنا:ـ يا أله.. ما الذي يجري وإنا ها هنا لاهون قاعدون؟!

عند أكتمال كل دورة تدور بها السمكة كان طفل وافد جديد يلتحق بركبنا، والتصدع مستفحل في المرايا والهياكل، والنضوب يتعاظم في مناسيب المياه الحمراء. بعد أن أتم جمع الأطفال التحاقهم بنا، نترت

السمكة ذات القرن الجديلة آصرتها مع فلكنا، ففكت الوثاق، ومن فورها أتجهت نحو المنصة، أولجت قرنها تحت سطح المياه الحمراء، وما لبثنا أن شاهدنا المنصة تعلو ثم تشهق، مسندة الى القرن...، عجلت السمكة تدور، نابتة أجنحة متنامية لها، راحت في التو تثير ريحا صرصرا عاتية كنست بقيا الركام قاذفة بها عبر شعاب الوديان.

بعد أضطراد في الخفقان، وتوافق في الدوران، سمت السمكة في تحليق مهيب، بعرف ذيلها المتسع الرائق الألوان واللامع أبداً، مولية إيانا الإدبار، محلقة الى منابع النور في أوابد السماء.

كما لو أننا نولد للتو

بعد أن صهرتنا مرائر السنوات وأفراحها الشحيحات في روح واحدة، كانت ميتتها المباغتة، أول طعنة غدر وأشدها أذى على الأطلاق، واجهتني في حياتي... واليوم، وقد بلغت الستين، وحيدا دونما حبيب أو أنيس، وسلال أيامي توشك على النفاد، أفتقد حضورها البهي، وأشعر باليتم المكتمل، كما لو كنت طفلا غريرا أفلتته قبضة أمه في خضم متلاطم من الكائنات والأحداث في بازار متشعب المتاهات.. لم يحدث أن أنقطعت، مرة واحدة، كل تلك السنوات، عن القيام بواجبي، في زيارتها الأسبوعية، حتى وإن كان الشاغل عظيم الأهمية، أو كان مرضا شديدا يلزمني الفراش، على الرغم من مسافة، ماينقص أو يزيد على الساعتين والنصف، حسب حال الطريق بين محل سكناي والمقبرة.

والشمعة متقدة للتو، والقبر مبلل بماء الورد، وسحائب الدخان الشفيفة لعيدان البخورالمجمرة، تتراقص توافقا مع حراك الريح الهين، وكما لو كنت أقرأ تقريرا مكتوبا على ورق، رحت أتلو وكما في كل مرة،على مسامع شاهدة القبر، بالتفصيل الممل، الوقائع التي جرت لي الأسبوع المنصرم، ممتزجة بمشاعري وأفكاري حيالها، مثل من يفرغ حمولة ثقيلة

تجثم، بتراكم دقائق وساعات وأيام أسبوع كامل، على صدره، ما أن تنزاح عنه يتنفس الصعداء.

بعفو الخاطر، كنت ألمح، عن بعد يسير، ظلا لأمرأة تقعي أمام شاهدة قبر، عددا من المرات في جمع سابقة، غير أني لم أكن منتبها الى التقاطيع المشدودة لجسدها الفارع، سوى ذلك النهار التشريني الدافئ، وكانت قد أحتضنت، بين ساقيها الممتلئتين، رخام الشاهدة، بشغف واضح ...

ضعف بصري لايعينني على تحديد سقف محدد لسني عمرها، ولكن يمكنني التخمين أنها عبرت حاجز الأربعين. ومايلفت، إضافة الى ماسبق، أن جسدها بأكمله، كان ينود، مرة الى الأمام وأخرى والى الخلف، بوتيرة واحدة، لكأنما ثمة إيقاع يظبطه، يبدو أنها كانت تنعي فقيدها على إنغام ترتيلة ما..

وأنا منهمك، مرة، بحديث ذي شجون مع قبر زوجتي ، كان هناك من يربت على كتفي، ألتفت فإذا بالمرأة الفارعة القوام ذاتها، كما نخلة، واقفة فوق رأسي، أبتسمت لها مستفهما، قالت: عذرا، فقدت في الطريق علبة البخور، فهل من قليل منه؟

نهضت نشيطا، ناولتها علبة بخور كاملة، فيما راحت، تسيح نظراتي، مرغما، في خمائل وجهها وتفاصيل قوامها، قالت هامسة: ولكن ماذا بشأن .. وأخذت تقرأ كلمات شاهدة القبر .. أجبتها: عندي المزيد

لقبر زوجتي. ترحمت قارئة سورة الفاتحة على روح الفقيدة، شكرتني وغادرت.

في الزيارات الأولى للمقبرة، أعقاب مواراة زوجتي في بقعة صغيرة من أرضها المترامية، كان إنقباض شديد الوطء يجثم على أنفاسي، وسرعان ما أولي الإدبار هاربا، فقد كانت أرضها المتربة الجافة والغبار المتصاعد منها، فضلا عن المرئى العشوائي للقبور وشواهدها، وكذا سراديب الموتى التي توحي بحيوات غامضة تحت الأرض تتوزع القبور الظاهرة، كلها تثير القرف بل وبعض الهلع في النفس، ولكن مع الوقت وتكرار الزيارات أمسيت متآلفا مع المشهد، وبت على علاقة ما مع الشواهد التي تخبرك بزمن ولادة وموت المتوفى، وإن كان شابا أو شابة هناك صورة له مثبتة أعلى الشاهدة تدعوك للأسف على شبابه، ومع توالي الأيام والشهور، رحت أقضي مزيدا من الوقت هناك، حتى أخذت أستأنس بوجودي بالقرب من قبر زوجتي وما يحيط به من قبور وسراديب..

ذات ضحى، وضياء الشمس فتيا ينير المكان، كنت في طريقي الى وجهتي المعتادة، لمحت عن مبعدة ضلا لآدمي يقف قبالة شاهدة قبر زوجتي، ولما أقتربت كانت هي ذاتها " زميلتي" الأربعينية الفارعة، ترتل" يوم لا ينفع مال ولابنون إلآ من أتى الله بقلب سليم "، فيما القبر مبلل بماء الورد وأعواد البخور والشموع المشتعلة تحيط به... انتظرت حتى

ختمت ترتيلها، فبادرتها ممتنا شاكرا. ردت:ـ في جنات النعيم إن شاء الله.

لم أشاء أن أتركها تغادر من دون أن تحتسي معي قدحا من الشاي، طامعا بمواصلة الحديث ومعرفتها عن قرب أكثر، أعتذرت في البدء ومن ثم رضت، سألتها ونحن نفترش التراب:ـ هل من أولاد لكما أنت والفقيد؟ أجابت بعد لأي:ـ نعم ولدين، ولكن أي ولدين .. إنهما كما فراخ" الشيج" ما أن يغادر المولود منهم رحم أمه حتى يطير بلا رجعة... :ـ كان الله في عونك .. واسيتها مضيفا:ـ لعن الله الوحدة كم قاسية هي .. قالت:ـ أقضي نهاراتي ولياليها أحدث الحيطان، من يراني يظنني مجنونة... سألتني:ـ وأنت؟ .. أرتشفت فما من قدح الشاي ثم أجبت:ـ حالي أهون قليلا من حالك، وقتي معظمه أقضيه هاربا في العمل، لأعود ليلا الى جحيم الوحدة، لم نرزق بإولاد أبدا، كانت الفقيدة عاقرا.

كنت أتملى متمهلا، وأنا أتحدث، في قسمات وجهها القمحي عيونها الموغلة الأزرقاق وشفتيها المكتنزتين المتهدلتين. همت بالقيام نافضة ماعلق بعباءتها من تراب، مدت ذراعيها وجمعت كفيها لتقرأ الفاتحة، ومشت الى قبر فقيدها، سبقتها حاملا كيس الشمع والبخور وماء الورد، ولما لحقت بي كنت قد انتهيت من إشعال عيدان البخور وأصابع الشمع ورش ماء الورد على قبر الفقيد .. قرأنا الفاتحة معا، لحظات صمت أعقبت مالبثت أن كسرتها بالقول:ـ هل أوصلك معي، لدي

سيارة .. شكرتني وأضافت:- سأبقى بعض الوقت أحدثه .. وأشارت الى القبر. قلت:- حسنا .. الى اللقاء.

وأنا أقفل مغادرا تنبهت الى أنني، وللمرة الأولى، لم أبث الفقيدة زوجتي هموم الأسبوع المنصرم منذ فقدتها وحتى اللحظة .. وطوال الأيام الستة التالية، لم يغب بهاء صورة زميلتي، وعذوبة صوتها عن تفكيري، وسبحت أخيلة مجنحة شتى في يقظتي ومنامي، هل يعقل أن كهلا بلغ الستين تتملكه أحلام مراهق في السادسة عشرة ؟! .. ولكن من أين لنا الحول أو القوة على شكم جموح هوى النفس، لا سيما الجوع الجسدي والحرمان من المؤانسة، يكتنفانها بل يكتفانها زمنا طويلا؟...

جمعة بعد جمعة، وزيارة بعد زيارة، وتبادل بعد آخر للشمع والبخور ومياه الورد، نشأ بيننا ود راح ينمو ويكبر حد تبادل الزهور والعطور وهدايا صغيرة أخرى، فيما طرأ تحول جوهري على طقوس الزيارات، حيث غدت مناسبات للتنزه والأستجمام كما هي عطل" الويك أيند"، ولم نعد نعير زوجينا الفقيدين ألتفاتة حتى، ثم مالبثت لقاءاتنا أن أمست حميمة الى درجة تكاشفنا فيها، وشكا كل منا وحشته وقسوة وحدته، بل وشوقه العارم الى لقاء ألآخر. تجولنا كثيرا بين القبور، بلغنا أطراف المقبرة، على شساعتها، ثم عدنا، مررنا بسراديب ومقامات وأضرحة، ولم يكن من بد سوى العثور على مكان نختلي به، لنأمن المفاجآت وشر أو حسد الأموات المتلصصين ...

في إحدى المرات، وأثناء تجوالنا، كنا قد مررنا بسرداب متوج بقبة متقنة البناء، يغلفها القاشان الفيروزي المزجج وتقوم على بناء سداسي الأضلاع، كل ضلع فيه عبارة عن رخامة مستطيلة منقوش عليها مرأى واحد، مرة بإطفال أكتافهم أجنحة ملائكة، وثانية بأشجار ثمارها قناديل ملونة، وثالثة بطواويس باهرة الألوان، و .. و ..

صامتين مأخوذين هبطنا سلمه المرمري ، لاصوت ولا أية نأمة. بلغنا أرضيته الرخامية الصقيلة التي أقيم فوقها قبرمزجج مهيب، ومن دون أية أرادة أووعي، ألقت حبيبتي عباءتها جانبا وخلعت ماترتديه، وكذا فعلت أنا، فيما أنبجست بنحو مفاجيء، في الظلمة المحيطة هالة ضوء لجبهة صبي تنز دما ومسمار نابت فيها، فيما ذراعاه مشرعتان. بعد دقائق لاتنضوي مطلقا تحت قياس الزمن المعتاد، أخذت مساماتنا تنز شبقا وعشقا، ليس من وصف يحيط بهما..

حين خرجنا من السرداب وجدتنا، كما لو أننا ولدنا للتو، طفلين غضين مبتهجين تحيط بنا غابة كثيفة من الأشجار المثمرة الورقاء، مثقلة بكل ما لذ وطاب.

نشيج الفرس

بات مألوفا منذ زمن لدى متبضعي سوق المدينة وأولادهم العابثين رؤيته مقتعدا رأس واحد من الاعمدة الكونكريتية الموزعة على سياج متنزه المدينة العام، تفترش اليته قمة العمود وساقاه تتخالفان على ركبتيه اللتين تحملان قفا راحتيه، بوضع المستغرق الساهم بدعاء ما مبتسما ملء وجهه وفتائل شعر رأسه تشبه هوائيات حلزونية، مثبتا نظراته في نقطة واحدة هناك في مرمى بصره، نقطة لا يراها احد غيره.

يكمل (بوذا) دورته يوميا متنقلا من قمة عمود الى قمة آخر من الاعمدة الاربعة والعشرين المحيطة بالمتنزه بمواظبة لا تخطئ او تكل وليس من احد يدري ان كان ينام ام لا، ومتى كان يأكل او يشرب، او كيف يقضي حاجته ، فضلا عن كونه لا يأبه لتقلبات الطقس او المناخ اذ ليس من اثر باد لتلك التقلبات على هيئته. كذلك ليس في علم احد من اين اتى... هل ثمة من اقارب له؟ بنات أو بنين؟ أخوال أو أعمام؟ ليس من أحد يعرف .. حتى الشيطان نفسه ..

تمرح على رأسه وكتفيه البلابل والعصافير، ويعابثه اثناء ذهابهم وعودتهم من المدارس، الاولاد المشاغبون يقذفون اليه بحصى الرصيف او قشور

الفاكهة ، ينهرهم المارة ولا يرتدعون، ويحدث ان ترمي اليه النسوة المتبضعات بقطع من العملة المعدنية او بعض من الخضار او الفاكهة ايفاء لنذر كن نذرنه على سبيل الاحسان فيما تظل ابتسامته العريضة راسخة، غير معنية بأيما حال سوى تصويب النظر على ذات النقطة هناك حيث اللامكان.

لم يكن احد من رجال المدينة او نسائها بقادر على الحصول على يقين يطفئ جمر الفضول فيما يخص بوذا، وقد تحولت حالته، خلل تراكم الزمن الى قضية تشغلهم اثناء لقاءاتهم اليومية في المقاهي ومجالس السمر، فتعددت واختلفت الروايات بشأنه فمن قائل انه عين من عيون محافظ المدينة ..الى قائل انه ابن السبعة شهور مخبول ولدته زانية واودعته، ذات ليلة، المتنزه وهربت مجللة بالخذلان .. وغير ذلك من الروايات، ولكن تلك الاقاويل لم تكن لتجيب على تساؤلهم الاكبر وهو كيف للنذور التي يكون بوذا وسيطها، من دون علمه، تستجاب ؟ وهو الأمر الذي ما فتيء يؤكده حارس المتنزه الكهل الذي ورث المهنة عن أبيه، مشفوعة بوصيته المشددة لأبنه بعدم المساس بحرية بوذا او تقييدها، وكذلك إجزال العطاء له قدر الأستطاعة.

ذات مساء فيما كان الحارس يقتعد وزوجته الحصير على أرضية غرفتهم الصغيرة المقامة في أقصى المتنزه، يحتسون الشاي أباح الحارس بسر مقرون بتحذيرات مشددة بكتمانه لزوجته التي أعتادت كتمان السر

حال تلقيه بإيداعه أذن أقرب جارة تصادفها.. مقرونا أيضا بتحذيرات مشددة بالكتمان.. قال الحارس :

- لم أك الحظ ذلك فيما مضى كنت، أرى في البدء شبحا لا يمكنني تشخيصه يتحرك خلل أعطاف الظلمة، ولما كنت أصرخ من هناك، يختفي في الحال، حتى بات المشهد يتكرر لليال عدة، وبدا لي أنه ظل لأمرأة ملفعة بسوادين، سواد عباءتها وسواد الظلمة المحيطة بها، ومن دون أن تند عني أيما نأمة رحت أرقب المشهد، ناوليني أستكانة ثانية بسكر قليل.

خاطب الحارس زوجته، بعد أن تجشأ، فيما تستحثه زوجته على إكمال حكايته، ناولته الأستكانة فعاد ليقول :

ـ تيقنت انها امرأة حقا ولكن لم يكن يبين من ملامحها سوى جسد فاره وبريق وامض يتحرك في عينيها، تدور حول كل عمود من أعمدة المتنزه تلتقط عطايا بوذا تودعها خرجا تحمله، لا يمتلىء حتى آخر عمود، ثم تنسل خفية تغيبها ستارة الظلام. وغير ذات مرة سمعتها تترنم بلحن غريب يتواشج أيقاعه الهين بنواح ممطوط غامض، ركبني الفضول أكثر مما أرتبت، فكمنت لها في الليلة التالية خلف العمود ألاخير ...

. الا تعطيني إستكانة ثالثة يا امرأة؟

كان ما زال يلهث وهو يستل سيكارة من علبته ويشعلها، امتص نفسا مبتورا فدهمته نوبة سعال، ما لبثت أن سكنت. أرتشف قليلا من

الشاي ونفسا من الدخان متجاهلا تأنيب زوجته على أفراطه في التدخين، حاثة إياه على اكمال الحكاية ، سألها: ـ اين وصلنا؟.. أجابته على الفور.. كمنت لها..، أسترسل الحارس:

ـ كمنت لها قاطعا أنفاسي خلف العمود الاخير فلما أمست بمتناول يدي امسكت بها صارخا (قفي) ولم ألمس سوى عجينة طرية سالت من بين أصابعي الى الأرض مغشيا عليها، أسرعت فجلبت الماء، هممت بدلقه على وجهها، ولكني وجدتها ملثمة، أمطت اللثام، وأذا بي أصطدم بمفاجأة على غير توقعي، أحتجت لبرهة من الوقت كي أصدق أنها هي؟ هل تعرفين من كانت؟

سألته زوجته بلهفة صارخة: ـ من؟

متأففا أجاب:

ـ مظلومة .. نعم مظلومة الأرملة، بلحمها وشحمها، تصوري تلك الذئبة المستوحدة، ''أم الخشم اليابس'' التي سجنت مفاتنها الخارقة بالسواد، واحتمت كل ذاك الزمن بالوحدة تكابر فقدانها زوجها، تتسول ليلا مخلفات ''بوذا''؟!!

راح الحارس يحلق في وجه زوجته المنبهر، محاولا قراءة وقع احداث حكايته على قسماتها وهو يمتص بنهم دخان سيكارته الموشكة على الانطفاء، لم يرتسم على وجه زوجته أي ملمح تصديق، فحلف لها أغلظ الايمان، أنها مظلومة وليس غيرها.. فسألته: ـ وماذا بعد؟ أجابها

انه شعر بحياء شديد فتوارى حالا من المشهد تاركا إياها تستفيق وتتلفت مذعورة ثم تلملم نفسها وتمضي.

.....

روى شيخ طاعن في السن من شيوخ المدينة، وكان من بين ناجين قلائل من بطش سنيي القحط العجاف التي ألمت بقرى الجنوب فيما مضى، فنزح شأن من نزحوا الى المدينة هربا من ميتات محققة بسبب طغيان الأقطاع وقحط لحق بالأرض والضرع .. روى ان أبا ''مظلومة؟ كان مالكا لعدة دوانم من الارض وعدد لا يستهان به من رؤوس الجاموس والابقار والاغنام، وكان رجلا عادلا منصفا وكان الشيخ — الراوي — لما كان صبيا يعمل راعيا للماشية في أملاكه؟ وهو شاهد عيان على ما يرويه، ويضيف، كان وقوع أراضي أبو مظلومة وسط ضياع مترامية لأقطاعيي المنطقة، سبب تحاملهم عليه ومحاولاتهم المتكررة سلبه ممتلكاته وبالتالي تدجينه، غير أنه لم يرضخ يوما، بل راح يقارعهم ببسالة مشهودة، وقد سميت أبنته مظلومة لانها لم تر يوما أباها، فحين سقطت من رحم أمها مات هو، وراحت الأم تاخذ دور الأب المتمرد، تتمنطق نهارا وليلا باحزمة الرصاص، وبندقيتها البرنو لم تفارق كتفها متعقبة أثار اللصوص والطامعين، ولا تترجل عن صهوة جوادها الا لرضاعة ''مظلومة؟" حتى شاع صيتها في الأنحاء بأسم (مكيه أم تفكه)

وقد ورثت "مظلومة"من أبويها هذا الذي ترونه من أنفة وكبرياء، ولست أدري لم أطلقوا عليها "ام خشم اليابس" وهي العزيزة البأس الكريمة النفس، لا لوم عليها ولا تقريع لما آلت اليه تحولات حياتها بعد زيجتها المعذبة، وقد عانت الأمرين، غياب بعلها المتكرر، وقد كان رجلا صامتا غامضا مهابا، ثم فقدانه الى الابد.

لا يمكن لأحد في طول المدينة أو عرضها أن يرتاب بحديث الشيخ الطاعن لما عرف عنه من حكمه وصدق طوال السنين الماضية، غير أن خبر أرتيادها المتنزه ليلا مضافا أليه بعض" التوابل،،في رواية زوجة الحارس، أحدث أرتجاجا جديدا في ريبتهم فراحت تتناسل تقولاتهم.

- قيل أنها جنت الكثير.. الكثير من عطايا (بوذا)

- وأن في حوزتها مخبأ سريا كبيرا – الله وحده يعلم – كم من الاموال مكدسة فيه..

- نشدانها العزلة ليس بسبب حزنها المقيم، بل خوفا من عيون الحساد واللصوص..

- في الامر شيء مريب.. ما نوع علاقتها مع (بوذا)..

- شاهدها الحارس، ومن بعده كثيرون، ترقص وأياه، تلامسه، ثم تقبله، وتعانقه، وتـ.. وتـ..

- لماذا تشفق بقوة عادة على متسولي المدينة لاسيما الأطفال؟!.. هي تشفق عليهم ليس في سبيل الله، بل هم أولادها

حصرا، تلدهم سرا، تحتضنهم وترعاهم حتى يصلب عودهم ثم تطلقهم متسولين في الشوارع طمعا منها بالمزيد والمزيد.

ظلت كرة الثلج تكبر وتكبر حتى بلغت خلاصة ان (بوذا) ليس مجهولا تماما، فقد روى أحدهم أنه عاد صديقا له وكان مصابا بجروح غائرة خلفتها أحدى معارك الحروب المتكررة، وكان الصديق في حال مزرية ينازع الموت، ومضى قائلا:

– جلست على حافة سريره، أمازحه كيما أبث العزم فيه، انه بصحة ممتازة وجراحه يسيرة هينة وأريده أن يتعافى بسرعة أذ أنني أحتفظ له بزوجة بارعة الحسن ولا ينقص من جمالها شيء سوى أن اسمها "مظلومة؟ .. وما أن نطقت الاسم، كأنما قرصته حية، أستوى جالسا على الرغم من حالته البائسة وصاح:– من؟ أجبت مندهشا: "مظلومة"!! ما لبث ان قال:ـ طويلة كنخلة، بضة كقطن مندوف، عيناها ينابيع، شعرها أفياء، وجناتها قمرين، جبهتها جبل أشم، مشيتها مشية أميرة.. سألته مندهشا أكثر: هل ألتقيتها؟! أجاب:ـ نعم .. وأضاف: صديقي.. زوجها محكوم بالاعدام لعدم أمتثاله وتمرده على الاوامر العسكرية، وقبيل تنفيذ الحكم به مع مجموعة متمردين، قام بقيادتهم ليلا عبر نفق حفروه في أرض السجن وهربوا عبره.. وهم أحرار حتى اللحظة، سألته مستوضحا: صفه لي. فوصفه بنحو إن أنت جردت (بوذا) من شعره الكث ولحيته المسترسلة ثم من أسماله كان هو .. هو لاغيره..!!

.....

هتك السر اذن!! فبانت الحقيقة عارية بالكامل.. (بوذا) أذن زوج (مظلومة الأرملة) المفقود ..

قررت بلدية المدينة ذات يوم إنشاء نصب في قلب المتنزه، تصفه خارطة المشروع بدائرة خرسانية واسعة بإرتفاع مناسب يقوم على محيط قاعدتها أربعة وعشرون عمودا مخروطيا من الخرسانة وبأقطار متفاوتة، تبدأ ركائزها من دائرة عريضة في الأساس، ما تفتأ كلما ارتفعت تضيق حتى تنتهي برؤوس مدببة كأسنة حراب، ستحمل فيما بعد تمثالا من البرونز لفرس أفخاذها معضلة وبطنها ضامر، وعروق جيدها المتطاول تباهي شعر عرفها السابح مع الريح، نافرة تشهر، بعنفوان جامح، قائمتيها الأماميتين إزاء السماء. وقد حددت البلدية سقفا زمنيا لانجاز النصب أقصاه ليلة عيد المدينة ذو الأربعة نهارات..

أغلقت أبواب المتنزه بين زحمة تساؤلات السكان وأستغرابهم، اذ راح التخمين يتلو التخمين ... (لقد وشى أحدهم بـ (بوذا) وقد طوق المتنزة وأغلقت أبوابه من اجل القبض عليه...) و(ليس الامر متعلقا ببوذا ولكنه . حسب مسؤول صديق في الحكومة . من أجل أنشاء سجن جديد بعد أن ضاقت السجون القديمة بنزلائها ..) و (كلا، أن الأمر لا ذاك ولا ذا، بل لإقامة دار إستراحة جديدة لمحافظ المدينة..)

و..و.. وغيرها من التخمينات.. فيما علقت في اليوم التالي على أبواب المتنزه يافطات تعتذر فيها البلدية عن إستقبال الزوار وذلك لأغراض التعمير، وغص المتنزه بعد ذلك بحشود من العدد والآليات ومواد البناء والعمال .. وبدأت أعمال الحفر ودق الركائز، وغدت الأغصان والجذوع والاوراق كالحة بفعل الأتربة المتطايرة، وراح ضجيج المعاول والآليات المتفاقم يطرد بقايا زوار المتنزه المدمنين على زيارته، فقد غادرته البلابل والعصافير والفراشات، بينما راحت الخطى والعجلات الثقيلة تسحق بلا مبالاة العشب المضمحل، الذي باتت صفرته الشاحبة تنبئ بموت وشيك.

أقام النجارون القوالب الخشبية لقواعد الأعمدة التي ستمتلئ فيما بعد بالخرسانة المسلحة بأسياخ الحديد، وربطوا بينها سقالات تيسر تنقلهم عليها من قاعدة لأخرى. وقد شوهد بوذا بشهادة الحارس يتمشى أنصاف الليالي فوقها متفكرا وقد غادرت قسمات وجهه أبتسامته العتيدة..، ومع مضي الوقت وأشتداد وتائر العمل، حالما كان يصل الى فتحة القاعدة الخشبية لعمود ما، والتي ما فتئت تضيق كلما أرتفعت، يدخل رأسه في جوفها راكعا مطلقا عواء فاجعا، كما لو أنه أسد طريد..

أستحال في الايام التالية لون أبنية المدينة وأزقتها وطرقاتها ترابيا، اذ ما أنفكت تهطل من السماء، متصلة، أمطار من تراب ناعم، حتى باتت الرؤية في وضح النهار لا تعدو مترا او مترين، بينما يتناهى الى الأسماع

صراخ مصحوب بمتلازمه تترد بلا انقطاع.. (الباب التي تأتيك منها الريح سدها وأسترح)...، ولأول مرة شوهدت (مظلومة الارملة) تعدو في الأزقة والشوارع تستغيث نائحة منفوشة الشعر مكسوة بالتراب حتى لا يبين في هيئتها معلما غير فتحات الانف والفم والعيون.

أدلهمت السماء، في الليلة السابقة لنهار العيد، وثقل هواؤها ومضت تتخلله عواءات موجعة طويلة مرسبة في قرارة النفوس أسفا غامضا، وتردد القمر ليلتها في الظهور حتى شوهد بالكاد أخيرا هلالا نحيفا خجولا.. تقلب الاولاد المشاكسون على أسرتهم تقلق مناماتهم رؤى مضطربة، فيما الأمهات قضين الليل واجمات وهن ينصتن لنتف من العواءات تحملها السنة الريح الى أسماعهن فتكف أيديهن عن صنع وإعداد حلوى العيد، وبقين ساهرات حتى بانت أخيرا كرة الشمس حمراء خابية من خلف ظلال معتمة سود.

وهن في طريقهن صباح العيد الى حيث المتنزة، باحت زوجة الحارس لجارتها، ان (بوذا) لم يعد يظهر كعادته في الايام الاخيرة، حتى غاب تماما عن الأنظار من قبل ثلاث ليال عندما صبت المكائن خليط الخرسانة في اجواف القوالب الخشبية، وقد بذل زوجها المستحيل في العثور عليه ولكنه لم يفلح... في حين يبدو أن مسا من الجنون أعترى (مظلومة الأرملة) التي ظلت تدور في الازقة والطرقات عارية بعد ان مزقت ثيابها وظلت تزأر كما لو كانت لبوة طريدة..

لما بلغ الوقت ضحى العيد، وبناء النصب قد أكتمل تجمهر سكان المدينة كلهم، أطفالهم نساؤهم ورجالهم في مهرجان ستؤرخ له المدينة فيما بعد، اختلطت فيه ألوان ملابس الصغار البراقة بألوان اردية ذويهم الكامدة مخلفة في حدقات العيون لونا كامدا واحدا، وعلى زعيق الطبول والابواق الذي أخذت تطلقه الآت فرقة موسيقى البلدية، قدم محاطا بمساعديه، محافظ المدينة، أذ كان عليه ازاحة الستار عن النصب. لحظة أمسك المحافظ حبل الستار، تفاقمت همهمة غامضة وسط الجمهور، وراح الجميع يتلفت، تلتقي العيون حائرة في اجواء متوترة تبحث عن اجابة، بينما يتكشف الستار متساوقا مع حر لاهب يتلظى في أرجاء المكان، مسيلا عرقا مالحا راح يلذع المحاجر، حتى أذا أكتمل ظهور النصب، فوجئ الجميع بقطرات حمر قانية تساقط متواترة من مقلتي الفرس، وتتناثر فوق رؤوس المحتشدين.

***

السيرة الذاتية

كاظم جماسي

- ولد في بغداد ١٩٥٩
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق منذ ١٩٩٥
- له: " لغو .. لا .. أكثر"/ سرود/ بغداد/ في أواسط العام ١٩٩٧/ ١٠٠ نسخة بطريقة الاستنساخ/ ثمنها: اعتقال لمدة أكثر من شهر مع" حسن المعاملة" في أقبية مديرية الأمن العامة وللقصة تكملة..
- نشرت له، سرود وأعمدة رأي وموضوعات مختلفة، دوريات وصحف ومواقع نت، محلية وعربية وعالمية.

- خدم، على الملاك الدائم، أكثر من ١٢ سنة في مديرية الدراسات في وزارة الثقافة والاعلام المنحلة، وفصل من الوظيفة، لأسباب يطول شرحها، ولم يقبل أي " طيب" بعد التغيير ٢٠٠٣ وحتى اللحظة، عودته للوظيفة على الرغم من أن كل وثائقه رسمية وأصولية، والعيب ليس في المسؤول " حاشاه" وإنما فيه هو " متكبر" و" غير مهذب" و" عقرب في جيبه".
- عمل في الصحافة المحلية: " المواطن" و "الاتحاد" و" المدى" و" الحياة اليوم" و" الحياة" و" الرقيب" بمسميات مختلفة ولما يزيد على العشر سنين ولا يملك أية عضوية في أية نقابة أو اتحاد للصحفيين.
- له" الكلمة الأولى للقصيدة" مخطوطة رواية/ " وساوس" مخطوطة سرود/ " تضاعيف ورؤى" مخطوطة قراءات مختلفة..

***

الفهرس

الزورق 9
تحرير 11
إرتقاء 13
تطريز 15
إكتشاف متأخر 17
Trffic light 18
أختيار 19
الامر يستحق العناء 21
جمرة 26
حبل سري 30
طيران 36
الصرخة الاولى 39
توق قديم 44
لغو .. لا .. أكثر 49
الديك 53
بناة العدم 60
رؤيا اللجة 67
كما لو أننا نولد للتو 74
نشيج الفرس 80
السيرة الذاتية 91

ISBN 978-9922-648-81-1

COPYRIGHT© الحقوق محفوظة©
THE UNION OF IRAQI WRITERS للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق